■ الفصل السادس ■

الرأسمالية الفوضوية فى روسيا ما بعد الشيوعية

إن البلاشفة... يمثلون فلسفة للحياة غريبة عن الشعب الروسى، ولايمكن فرضها عليه دون تغيير الغرائز والعادات والأعراف، وكلها خصائص على درجة من العمق تتطلب تجفيف المنابع الحيوية للحركة، وينتج عنها فتور الهمة واليأس، بين الضحايا البسطاء لحركة التنوير المجاهدة.

برتراند راسل (١)

إن الكتاب الروس، باستثناء قلة منهم، يحتقرون تفاهة الغرب. وحتى من أبدوا إعجابهم الشديد بأوروبا فعلوا ذلك لأنهم لم يفهموها فهما كاملا. وهم لا يريدون أن يفهموها. وهذا هو السبب فى أنهم اختاروا دائما الأفكار الأوروبية فى أغرب صورها.

ل. شيستوف (٢)

كانت روسيا مسرح تجربتين من تجارب اليوتوبيا الغربية خلال هذا القرن. كانت أولاهما التجربة البولشفية. وقد أسفرت فى بداية مراحلها وأكثرها راديكالية ـ شيوعية الحرب ـ عن توقف التصنيع وانتشار المجاعة، وأدت إلى ما دعا إليه ستالين من «الثورة من أعلى»، التى ترتب فيها على التحول إلى الزراعة الجماعية تدمير الزراعة الفلاحية. وكانت ثانيتهما تجربة العلاج بالصدمات. وقد طبق هذا العلاج لفترة قصيرة بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، وكان يهدف إلى إقامة سوق حرة فى روسيا ما بعد الشيوعية. ولكنه أنتج بدلا من ذلك نوعا من الرأسمالية الفوضوية التى تسيطر عليها المافيا.

وكان لكل من التجربتين تكاليف بشرية هائلة. وكانت كلتاهما محاولة فاشلة

---

(١) برتراند راسل، **The Practice and Theory of Bolshevism**، لندن: جورج ألن آند أنوين، ١٩٢٠، الصفحة ١١٨.

(٢) ل. شيستوف، **All Things are Possible**، لندن: مارتن سيكر، ١٩٢٠، الصفحة ٢٣٨.

لإدخال تحديثات تهتدى بالنظريات أو النماذج الغربية التى ليست لها صلة تذكر بتاريخ روسيا وظروفها.

ففى الفترة ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩٢١ حاول البلاشفة تحويل روسيا إلى اقتصاد شيوعى. وكانت شيوعية الحرب التى سعى البلاشفة لفرضها على روسيا خلال تلك السنوات تجسيدا لرؤية ماركسية خالصة. وكانت تهدف إلى إلغاء الرأسمالية، التى يكون فيها دور محورى للملكية الخاصة ومبادلات السوق ومؤسسة النقود، وإلى إقامة اقتصاد مملوك ملكية جماعية، ويجرى تخطيطه وفقا لقواعد رشيدة وعقلانية.

وكانت شيوعية الحرب متفقة مع بعض السمات الروسية، مثل كراهية الإثراء الذاتى عن طريق التجارة، والشعور بأن للبلد دورا مقدَّسا، وكان ذلك دائما من سمات المسيحية الأرثوذكسية الروسية. ومع ذلك لم تكن شيوعية الحرب تعبيرا بسيطا عن الأعراف الروسية. فقد شنت حربا على المجتمع المحلى الفلاحى، وعلى كل أعراف حياة الفلاحين الروس. ولكنها جسّدت فى ذلك عملية تحديث وحشية من أعلى، كانت لها سوابق فى عملية التغريب الاستبدادية التى فرضها بطرس الأكبر (*).

ولقد تأثرت شيوعية الحرب بصورة حتمية بمفارقات التاريخ الروسى، ولكن جذورها كانت ممتدة فى حركة «التنوير الأوروبى» التى كانت تنتمى إليها الماركسية الكلاسيكية. (٣) وعلى غرار «القفزة الكبرى إلى الأمام» فى الصين، كانت شيوعية الحرب يوتوبيا غربية. فهى لم تكن وضعا فرضته على البلاشفة ضرورات الحرب، بل كانت تجسيدا ماركسيا للمشروع التنويرى الذى يدعو إلى حضارة عالمية.

وفى أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٩١ اضطلعت روسيا بمشروع تغريبى آخر. وعن طريق سياسة العلاج بالصدمة التى نفذها ييجور جيدار، حاولت حكومة ما

(*) بطرس الأكبر: (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥)، إمبراطور روسيا (١٧٢١ ـ ١٧٢٥) وقيصرها (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥)، ومؤسس نهضتها الحديثة. ظهرت موهبته فى سن مبكرة. اهتم ببناء الأسطول وإدخال النظم العصرية فى الجيش. أدخل تقنيات الصناعة الأوروبية فى روسيا، ونقل العاصمة إلى مدينة بطرسبرج التى بناها على بحر البلطيق، وحرر النساء من ذل الاستعباد. أمر الاشراف بحلق لحاهم، وأمر الروس بارتداء الملابس الأوروبية. وقد نفذ إصلاحاته بدقة وقسوة وصرامة، فأثار عليه العناصر المحافظة ورجال الدين ـ المترجم.

(٣) من أجل الإلمام بالامتزاج بين الأعراف الثقافية الأوروبية والروسية فى الفلسفة اللينينية، انظر، ألين بازانكون، **The Rise of the Gulag: Intellectual Origins of Leninism**، نيويورك: كونتينوم، ١٩٨١.

بعد الشيوعية بقيادة بوريس يلتسين أن تتبع مشورة المنظمات عبر الوطنية والمستشارين الغربيين، وتغرس فى روسيا اقتصاد سوق على الطراز الأمريكى.

وكما كان متوقعا، بل وحتميا فى الحقيقة، أخفقت المحاولة. فقد ظهر نوع جديد من الرأسمالية الروسية، يختلف عن أي رأسمالية فى الغرب وعن الرأسماليات التى تطورت فى غيرها من بلدان ما بعد الشيوعية. ويرتبط مستقبل روسيا بهذا النوع من الرأسمالية المحلية، وليس النموذج الذى حاول جيدار، باعتباره الأخير فى طابور طويل من دعاة التغريب الروس، أن يفرضه عبثا على البلد فى الفترة ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣.

وتوحى سياسات حكومة يلتسين، منذ أن تخلت عن العلاج بالصدمة أنه قد أدرك هو ومستشاروه أن التحديث وفقا لنموذج أى اقتصاد سوق غربى لن ينجح فى روسيا، بل وربما لا يكون مرغوبا فيه.

ففى روسيا اليوم أصبحت التنمية الاقتصادية وبناء الدولة أمرين لا يمكن الفصل بينهما، وينبغى أن يسيرا معا إذا أريد التخلص من سيطرة رأسمالية النهب التى أعقبت على الفور فترة ما بعد الشيوعية. **فمما لا غنى عنه للتحديث المتواصل وجود دولة عصرية لديها مؤسسات فعالة تضطلع بالتنفيذ.**

إن الحداثة التى مازال على روسيا أن تحققها لايمكن أن تكون حداثة أمة أوروبية. ومن المحتوم أن تكون حداثة بلد لديه كل من المصالح والأعراف الأوروبية والآسيوية. كذلك لا يمكن نقل المؤسسات الاقتصادية أو السياسية من أى بلد آخر إلى الظروف الفريدة لروسيا مابعد الشيوعية. والحديث المرسل عن روسيا بوصفها دولة انتقالية لايجيب عن السؤال الوحيد الجوهرى، ألا وهو الانتقال إلى ماذا؟

ولاشك فى أن الرأسمالية الفوضوية التى حلت محل التخطيط المركزى السوفييتى هى مرحلة من مراحل التغيير، وليست نقطة النهاية فى التطور الاقتصادى الروسى. ولكنه ليس تطوراً فى اتجاه أى اقتصاد غربى، بل هو تطور إلى نوع هجين من الرأسمالية يزداد تماثلا مع تلك الرأسمالية التى كانت قائمة فى روسيا قبل الثورة. وهى ليست السوق الحرة التى تتحدث عنها الكتب المدرسية الجديدة فى الغرب، وإنما هى رأسمالية يتعايش فيها تدخل الدول على نطاق واسع مع وجود مجالات مهمة لنشاط المنظمين المتحرر من الضوابط.

ولو تطورت روسيا حقا فى هذا الاتجاه لكانت قد استأنفت عملية تحديث ذات طابع

محلى، بدأت فى العقود الأخيرة للعهد القيصرى، وهو المسار الذى انحرفت عنه بسبب الحرب العالمية الأولى وسبعين سنة من الحكم السوفييتى.

شيوعية الحرب السوفييتية والعلاج بالصدمة فى فترة ما بعد الشيوعية

مثلما كانت الحال بالنسبة للاتحاد السوفييتى خلال أعوامه السبعين أو نحوها، كانت شيوعية الحرب محاولة لتحديث روسيا وفقا لنموذج غربى. وقد كتب رتشارد پايپس يقول إن «شيوعية الحرب فى مجموعها لم تكن «تدبيرا مؤقتا»، بل كانت محاولة طموحة ـ وسابقة لأوانها كما تبين فيما بعد ـ من أجل تطبيق الشيوعية بصورتها الكاملة»[٤].

وشأن كل الأفكار اليوتوپية، كانت شيوعية الحرب التى تتطلب، قبل أن يكون ممكنا تثبيت أركانها، تغييرا غير مسبوق فى الطبيعة البشرية. وقد عبر ڤيدچس عن ذلك بقوله: «كان الهدف الأبعد للنظام الشيوعى هو تغيير الطبيعة البشرية، وهو هدف كانت تتقاسمه النظم الأخرى المسماة بالشمولية فى فترة ما بين الحربين. وكان ذلك، برغم كل شىء، عصرا للتفاؤل اليوتوپى بشأن قدرة العلم على تغيير الحياة البشرية. . . . وكان برنامج البلاشفة قائما على المثل العليا للتنوير ـ إذ كان ينبع من كانط بقدر ما كان ينبع من ماركس ـ مما جعل الليبراليين الغربيين، حتى فى عصر ما بعد الحداثة، يتعاطفون معه»[٥].

وقد اعترف لينين بأن شيوعية الحرب هى يوتوپيا. وقال إن البلاشفة مهندسو الروح. وفى كتابه اليوتوپى **الدولة والثورة** كان يتوخى مجتمعا شيوعيا لايوجد به جيش ولاجهاز للشرطة، ويقوم فيه أى شخص بجميع وظائف الدولة المتبقية. وقد يكون من الضرورى فى الأجل القصير الاحتفاظ ببعض الممارسات الرأسمالية. أما فى الأمد الأطول فإن الاقتصاد الرشيد يجب أن يكون بلا نقود، وبلا ملكية، وبلا دولة، ومع ذلك يكون مخططا مركزيا!.

وكان لينين يعتقد أن هذه أهداف يمكن بلوغها. وكان فى ذلك يتبع ماركس، ويحظى بمصادقة من تروتسكى. وكان تروتسكى، من خلال دفاعه عن «عسكرة العمل»، أحد

---

(٤) رتشارد پايپس، **The Russian Revolution, 1890 - 1919**، لندن: كولينز هارڤيل، ١٩٩٦، الصفحتان ٦٧١، ٦٧٢.

(٥) أولاندو ڤيدچس، **A People's Tragedy: The Russian Revolution, 1891- 1924**، لندن: چوناتان كيپ، ١٩٩٦، الصفحة ٧٣٣.

المهندسين الرئيسيين لشيوعية الحرب. وبالمثل ارتد ستالين إلى نوع من شيوعية الحرب بعد المحاولة القصيرة التى قام بها البلاشفة فى التعامل مع الأسواق عند تطبيق «**السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب)**»(*). وكان جوهر النظام السوفييتى دائما هو ضرورة إعادة تشكيل البشر حتى يتلاءموا مع احتياجات اقتصاد جديد «رشيد». واستبعدت فكرة أن الاقتصاد إنما يوجد لخدمة البشر.

ومنذ البداية، قامت الشيوعية السوفييتية بمحاكاة تقنيات الإدارة العالية الكفاءة فى أكثر المجتمعات الرأسمالية تقدما. وسعى لينين إلى تطبيق «التايلورية» ـ أى نظرية المهندس الأمريكى ف. و. تايلور بشأن «الإدارة العلمية»(٦) وقد استخدمت التايلورية العمل بالقطعة، ودراسات الوقت والحركة، فى محاولة لإعادة تشكيل نفسية العامل ـ وهى رؤية سخر منها الكاتب الروسى زامياتين فى روايته المعنونة **We**(٧).

وكانت العقيدة البولشفية تتطلب أن يقوم البشر بدور موارد الاقتصاد. واستخدمت «علوم الإدارة» فى محاولة لإحداث تغييرات عميقة الأثر فى النفسية البشرية. ومن المفيد أن نرى أوجه التشابه بين التصنيع الاجتماعى البلشفى وبين نظرية وممارسة دعاة الأسواق الحرة فى أنحاء العالم اليوم.

وفى روسيا ـ كما حدث فى كمبوديا ورومانيا والصين وفى السنوات الأولى لكوبا تحت حكم كاسترو ـ كانت المحاولة الرامية إلى إقامة نظام اقتصادى استبعدت منه مبادلات السوق هى الطريق إلى الكارثة. فهذه المحاولة، عندما ألغت الأسعار، لم تترك وسيلة تستطيع بها جهة ما ـ سواء مجالس التخطيط الحكومية أو مديرو المؤسسات ـ تقييم التكاليف النسبية وتقدير المواد النادرة. والأسوأ من ذلك أنها ألغت لدى العمال الحافز على توجيه جهودهم إلى المجالات التى تمس فيها الحاجة إليها. وهذا بدوره جعل اللجوء إلى الإكراه والقهر أمرا لا مفر منه.

(*) **New Economic Policy (NEP)**: فى مارس عام ١٩٢١ اعتمد المؤتمر العاشر للحزب الشيوعى الروسى (البولشفيك)، بناء على مبادرة من لينين القرار الخاص بـ«السياسة الاقتصادية الجديدة»، التى كانت تهدف إلى التغلب على عناصر الرأسمالية، وبناء اقتصاد اشتراكى، عن طريق استخدام آليات السوق والتجارة ودوران النقود. وكانت تقوم على تحالف الطبقة العامة والفلاحين. وكان من المحتم أن تؤدى هذه السياسة فى بدايتها إلى انتعاش العناصر الرأسمالية فى المدينة والريف ـ المترجم.

(٦) لم ينشر عرض يوثق به عن حياة تايلور وأعماله إلا فى عام ١٩٩١، انظر، تشارلس د. ريدج، **Myth and Reality**، هوموود، إلينوى: إروين، ١٩٩١.

(٧) انظر، ڤيدجس، المرجع السابق، الصفحة ٧٤٤.

وقد عبر ڤيدچس عن ذلك بقوله، «مع عدم وجود حافز السوق، الذى كانوا يرفضونه على أسس أيديولوچية، لم تكن لدى البلاشفة وسيلة للتأثير على العمال سوى التهديد باستخدام القوة. . . وكان ذلك هو السبب فى عسكرة الصناعة الثقيلة: فوضعت المصانع الإستراتيچية تحت الأحكام العسكرية، وفرض الانضباط العسكرى على مواقع العمل، وعوقب العمال المستمرون فى الغياب بالإعدام رميا بالرصاص بدعوى الهروب من الجبهة الصناعية»[٨].

إن رفض مبادلات السوق باعتبارها الأداة التنظيمية المحورية فى الاقتصاد الحديث يؤدى بصورة حتمية إلى الاعتماد الشديد على الإكراه من جانب الدولة. وكانت التكاليف البشرية لذلك تشمل إرهاق ملايين الأرواح وتحطيم حياة بشر بلا عدد. وتبين أن منافعها الاقتصادية ضئيلة أو غير مؤكدة أو وهمية. لقد عانى من عانى ومات من مات بسبب المشروع السوڤييتى، وكان كل ذلك بغير مقابل.

وقد أوجز پايپس الآثار التى ترتبت على شيوعية الحرب السوڤييتية بقوله: «إن شيوعية الحرب، فى صورتها الكاملة التى لم تبلغها إلا فى شتاء ١٩٢٠ ـ ١٩٢١، تضمنت عددا من التدابير الحاسمة الرامية إلى وضع اقتصاد روسيا بأسره ـ قوة العمل فيه، وكذلك طاقته الإنتاجية وآلية التوزيع فيه ـ تحت إدارة الدولة وحدها». وشملت تلك التدابير التأميم على نطاق واسع، وتصفية التجارة الخاصة، وإلغاء النقود كأداة للتبادل والمحاسبة، وفرض خطة اقتصادية شاملة واحدة، واستخدام العمل الإجبارى»[٩].

وقد أخفقت شيوعية الحرب فى تحقيق أىٍّ من أهدافها. وبحسب النظرية الماركسية، فإن التنظيم الاقتصادى الشيوعى كان يمكن أن يحقق إنتاجية أعلى بكثير مما أمكن للرأسمالية أن تحققه فى أى وقت. لكن النتيجة الفعلية للتدابير الجذرية التى نفذت خلال فترة شيوعية الحرب كانت انخفاضا شديدا فى الإنتاج الصناعى.

«كان الهدف الاقتصادى الضيق للسياسات الصناعية السوڤييتية فى ظل شيوعية الحرب، هو بطبيعة الحال زيادة الإنتاجية. غير أن الشواهد الإحصائية تبين أن تأثير تلك السياسات كان بالتحديد هو النقيض. . . ففى ظل شيوعية الحرب، انخفضت «البروليتاريا» الروسية بنسبة النصف، وانخفض الإنتاج الصناعى بنسبة ثلاثة أرباع،

---

(٨) المرجع نفسه والصفحة ٧٢٤.

(٩) المرجع نفسه، الصفحتان ٦٧٢ و٦٧٣.

وانخفضت الإنتاجية الصناعية بنسبة ٧٠ فى المائة». ويخلص پايپس من ذلك إلى القول: «إن البرامج الخيالية، التى وافق عليها لينين، لم تسفر إلا عن تدمير الصناعة الروسية وتمزيق الطبقة العاملة فى روسيا» (١٠).

وكانت النتيجة النهائية لشيوعية الحرب خطوة طويلة إلى الوراء. فروسيا ـ التى كانت قبل الحرب العالمية الأولى من أسرع اقتصادات العالم نموا ـ توقفت عن التصنيع، كما تراجعت الزراعة فيها تراجعا شديدا. وكانت شيوعية الحرب أحد العوامل التى أسهمت فى وقوع المجاعة فى الفترة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ من خلال سياسة الاستيلاء على الحبوب من المزارعين. وحتى عندما خفف لينين هذه السياسة، فقد تمسك بالمشروع اليوتوپى الرامى إلى إلغاء التبادل السوقى فى المنتجات الزراعية: «فهو عندما تخلى عن الاستيلاء على الحبوب، تعلق مكرها بأمل أن يتمكن من تجنب منح حرية التجارة، وأنه لن يكون مضطرا لأن يسمح للسوق بتلويث نقاء العلاقات الشيوعية ـ لقد كانت الأفكار اليوتوپية متسلطة تماما. ولكن ثبت أن الواقع كان أقوى منها» (١١). وعندما جاء الوقت الذى غير فيه لينين سياسة الاستيلاء على القمح كان خطر المجاعة واضحا بالفعل. واستنادا إلى المصادر السوفييتية فإن المجاعة حصدت أرواح أكثر من خمسة ملايين نسمة (١٢).

وتم التخلى عن شيوعية الحرب. وفى عام ١٩٢١ اضطر البلاشفة إلى طلب المعونة الدولية. وترتب على ذلك «أن إدارة الإغاثة الأمريكية وغيرها من منظمات المعونة الأجنبية كانت فى إحدى المراحل تقوم باطعام أكثر من عشرة ملايين فم» (١٣). وحدث عصيان عمالى فى كرونستاد، وبدأ تطبيق «السياسة الاقتصادية الجديدة» التى استمرت حتى قرابة الفترة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧، وأعادت مبادلات السوق، لاسيما فى المنتجات الزراعية. وكما يقول بيكر فإن لينين طبق السياسة الاقتصادية الجديدة «لكى تتاح للحزب فرصة لالتقاط الأنفاس، وذلك بالاستعاضة عن الاستيلاء على الحبوب بالضرائب، وإعادة فتح أسواق الأغذية، وذلك كجزء من تراجع واسع النطاق عن اليوتوپيا التى لا توجد فيها نقود أو حقوق ملكية والتى حاول أن يطبقها بعد عام ١٩١٨» (١٤).

---

(١٠) المرجع السابق، الصفحات ٦٩٥ إلى ٦٩٧.

(١١) م. نيكريش، ا. هيلر، **Utopia in Power. The History of the Soviet Union from 1917 to the Present**، نيويورك: سوميت بوكس، ١٩٨٦، الصفحات ١١٥ إلى ١٣٦.

(١٢) وردت فى م. نيكريش، ا. هيلر، المرجع نفسه، الصفحة ١٢٠.

(١٣) چ. بيكر، **Hungry Ghost: China's Secret Famine**، لندن: چون مورّاى، ١٩٩٦، الصفحة ٣٨.

(١٤) المرجع نفسه، الصفحة ٣٨.

إن المجاعات الكبرى التى عانتها روسيا فى وقت لاحق (مثل المجاعة التى حدثت فى الفترة ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣) لم تكن بسبب محاولة إضفاء الطابع الاشتراكى على الصناعة، بل بسبب تحويل الزراعة إلى الجماعية. فعلى غرار شيوعية الحرب، كان هذا التحويل تطبيقا مباشرا للعقيدة الماركسية. فقد كان كل من ماركس نفسه **وجيورجى بليخانوف** (*)، أول المفكرين الروس الماركسيين العظام، يعتقدان أن مستقبل الزراعة يتطلب تصنيعها واستئصال الأعراف الفلاحية.

كان ماركس ينظر إلى مستقبل الزراعة باعتباره تطويرا لصناعة القرن التاسع عشر التى يمكن أن تحل فيها المزارع الصناعية العملاقة نتيجة له محل حيازات الفلاحين الصغيرة. وكان ذلك فى جانب منه لأن ماركس اتخذ من المصنع الرأسمالى فى القرن التاسع عشر نموذجه للتنظيم الرشيد للإنتاج. ولكن ذلك كان أيضا نتيجة لاعتقاده بأن المجتمع لايمكن أن يكون مجتمعا اشتراكيا إلا إذا أصبحت غالبية أعضائه بروليتاريا صناعية.

وكانت العقيدة الماركسية الجامدة القائلة بأنه يجب تصنيع الزراعة هى جوهر المشروع البولشفى لتحديث روسيا. وكانت نتيجة التحول إلى الجماعية فى الزراعة والقضاء على طبقة **الكولاك** (**) هى التدمير الفعلى لأعراف الزراعة الفلاحية فى روسيا. وظلت بعض المهارات الزراعية باقية فى المساحات الخاصة الصغيرة التى اعتمد عليها فى أغلب الأحوال بقاء الناس العاديين على قيد الحياة فى فترة العلاج بالصدمة بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، وكذلك فى فترة التحول إلى الزراعة الجماعية. ومع ذلك كان إضعاف قدرة روسيا ـ بصورة دائمة ـ على إطعام نفسها، هو ثمن السياسة البولشفية التى تجسدت فى إرغامها على قبول تحديث يتبع نموذج التطور الصناعى فى أوروبا فى القرن التاسع عشر.

ووفقا لتقديرات كونكويست، فإنه فى الفترة بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٣٧ مات فى

(*) **جورجى ڤالنتينو بليخانوف**: (١٨٥٦ ـ ١٩١٨)، مؤسس الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية. بدأ كفاحه قائدا للتنظيم النارودنى «الفكر والحرية». خاض معركة فكرية طويلة وضع خلالها عدة كتب كان من أهمها «تطور النظرة الواحدية إلى التاريخ». وتوجد ترجمة عربية لهذا الكتاب قام بها محمد مستجير مصطفى، وراجعها مراد وهبة. وقد صدرت الترجمة عن «دار الكاتب العربى للطباعة والنشر» بالقاهرة فى عام ١٩٦٩ ـ المترجم.

(**) **الكولاك**: الفلاح الروسى الغنى الذى كان يمتلك قطعة أرض ويستأجر الفلاحين لزراعتها. وكان معروفا فى روسيا القيصرية فى القرن التاسع عشر ـ المترجم.

الاتحاد السوفييتى أحد عشر مليونا من الفلاحين، فضلا عن هلاك ٥ , ٣ مليون غيرهم بالجولاج (*). (١٥) واستنادا إلى حسابات هيلمان، فإن ما بين سبعة وثمانية ملايين شخص ماتوا جوعا فى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣٣. (١٦). وكانت النتيجة مماثلة، ولكن على نطاق واسع، عندما اتخذ ماو من التحول إلى الزراعة الجماعية فى الاتحاد السوفييتى نموذجا لتحديث الصين.

وكانت روسيا فى العقد الأخير من العهد القيصرى قد سلكت طريقا آخر فى اتجاه التحديث. ففى قانون صدر فى ٩ من نوفمبر عام ١٩٠٦ كان رئيس الوزراء الإصلاحى الروسى ب. ا. ستولبين (**) قد حرر الفلاحين من التزاماتهم تجاه كوميوناتهم، ومنحهم الحق فى طلب حصة فيها يحتفظون بها كملكية خاصة. وكان من نتيجة ذلك أن تقدم ما يقرب من ربع أسر الفلاحين فى روسيا الأوروبية، فى الفترة ما بين عامى ١٩٠٦ و١٩١٦، بالتماسات للحصول على ملكية خاصة لقطع الأرض التى يزرعونها.

وثمة خلافات مهمة فى الرأى حول آثار إصلاحات ستولبين. فليس هناك ما يؤكد أن تلك الإصلاحات كان باستطاعتها منع الثورة فى روسيا لو أن اغتيال ستولبين لم يقع فى عام ١٩١١، ولو لم تقف الحرب العالمية حائلا دون مواصلة روسيا القيصرية تطبيق الإصلاحات. ولكن من الواضح أن إصلاحات ستولبين، على خلاف شيوعية الحرب والتحول إلى الجماعية فى الزراعة، كانت تشجع على تحديث يتلاءم مع كثير من احتياجات روسيا وظروفها المتميزة.

وكان كل من شيوعية الحرب، والتحول إلى الزراعة الجماعية، تعبيراً عن نفس

(*) الجولاج: معسكرات للأشغال الشاقة فى الاتحاد السوفييتى السابق، كان يرسل إليها المدانون بجرائم خطيرة، سواء جنائية أو ضد الدولة. كتب عنها ألكسندر سولجيتسن روايته المعروفة «أرخبيل الجولاج» التى وصف فيها ما كان يزعم أنه أهوال وفظائع ترتكب فى هذه المعسكرات. وقد بدأت الأجزاء الأولى من هذه الرواية فى الصدور فى باريس فى عام ١٩٧٤ ـ المترجم.

(١٥) روبرت كونكويست، **Harvest of Sorrow**، أكسفورد: إدارة النشر بجامعة أوكسفورد، ١٩٨٦.

(١٦) ميشيل إيلمان "**A Note on the number of 1933 famine Victims**" فى مجلة دراسات سوفييتية، ١٩٨٩. وردت فى بيكر، المرجع السابق، الصفحة ٤٦.

(**) بيوتر أركاديفتش ستولبين: (١٨٦٣ ـ ١٩١١)، رئيس وزراء روسيا فى الفترة ١٩٠٦ ـ ١٩١١. اشتهر بمناهضته للحركات الثورية، أعدم فى عهده آلاف الثوريين. سهلت تشريعاته بشأن الإصلاح الزراعى على الفلاحين شراء الأرض. حاول أن يقضى بالارهاب على ماكان يعتقد أنه إرهاب، فاغتيل على يد إرهابى فى عام ١٩١١ ـ المترجم.

المشروع الماركسى الذى كان يرمى إلى بناء اقتصاد يقضى فيه على مبادلات السوق. وباستثناء فترات قصيرة، مثل فترة «السياسة الاقتصادية الجديدة» فى العشرينيات، و«پيريسترويكا» جورباتشوف، وعلى الرغم من الأسواق التى كانت منتشرة طيلة العهد السوڤييتى، فقد كان هذا المشروع قائما طوال وجود الاتحاد السوڤييتى (١٧).

وكان النظام السوڤييتى، منذ بدايته وحتى نهايته، يعمل على تنفيذ مشروع محكوم عليه بالإخفاق لتحديث روسيا، وفقا لنموذج غربى ماركسى. وهذا لا يعنى إنكار أنه كان هناك فى بعض الأحيان تأييد للمشروع بين الروس. والحقيقة أن هذا التأييد كان فى ذروته خلال أسوإ الظروف، أى فى العهد الستالينى. ومن الخطأ القول، مثلما فعل ألكسندر زينوڤييف، أن الستالينية كانت ممارسة لسلطة شعبية؛ ولكنه يصدق القول على بعض أسوإ الفظائع الستالينية، مثلما يصدق على الثورة الثقافية فى الصين، أنها ما كان ممكنا أن تحدث بالتعاون الفعال من جانب الناس العاديين (١٨).

ومع ذلك فإن مبرر وجود الدولة السوڤييتية طوال تاريخها، هو تحديث كانت بداياته وأهدافه «غربية» دون التباس. وفى أول سيرة للينين تستفيد بالأرشيف الذى أصبح متاحا بعد انهيار الاتحاد السوڤييتى، يذكر ڤولكونجونوف أن «شيوعية الحرب. . . . كانت هى أساس سياسة لينين وجوهرها، وأن إخفاقها الكامل كان هو السبب الذى أرغمه على اللجوء إلى طوق النجاة المتمثل فى السياسة الاقتصادية الجديدة. وشيوعية الحرب. . . لم تمت تماما، ولكنها استمرت على قيد الحياة فى صور شتى، بل ظل لها وجود حتى نهاية الثمانينيات» (١٩). وكان المشروع البولشفى الذى جسده النظام السوڤييتى طوال تاريخه هو مشروع فرض حداثة غربية على روسيا، ولكن دون رأسمالية.

وكان من أثر هذا المشروع إخراج التحديث عن المسار السليم النابع من ظروف البلد، والذى بدأ فى أواخر العهد القيصرى. وكان من المخلفات الأساسية التى تركها العهد

---

(١٧) ناقشت الأصول الماركسية للشمولية السوڤييتية فى دراسة بعنوان **"Totalitarianism, reform and civil society**، وردت فى كتابى **Post - liberalism: Studies in Political Thought**، روتلدج: لندن ونيويورك ١٩٩٣، الفصل الثانى عشر.

(١٨) فيما يتعلق بزينوڤييڤ، انظر، **The Reality of Communism**، لندن: جولانتز، ١٩٨٤؛ **Homo Sovieticus**، لندن: جولانتز، ١٩٨٥؛ **Perestroika in Partygrad**، لندن، پيتر أوين، ١٩٩٠؛ **Katasrtroika**، لندن: ذى كلاريدج پرس، ١٩٩٠.

(١٩) ديمترى ڤولكونجونوف، **Lenin: Life and Legacy**، لندن: هاربركولينز، ١٩٩٥، الصفحة ٣٣٤.

السوفييتى لحكومة ما بعد الشيوعية اقتصاد زراعى مخرب. ونظرا لأن روسيا تمثل الآن مجتمعا حَضَريا، فإن سكانها الريفيين الذين يتناقص عددهم يعيشون فى عزلة، وكذلك فى فقر. ففيما بين عامى ١٩٩١ و١٩٩٥ انخفض عدد سكان الريف من ٣٨,٥ مليون نسمة إلى ٣٥ مليونا، لأن من استطاعوا إلى ذلك سبيلا فروا إلى المدن. وقد تضاءلت المحصولات بحيث لم يزد محصول عام ١٩٩٦ على محصول عام ١٩٩٥ إلا قليلا، فى حين أن هذا الأخير كان أسوأ محصول خلال ثلاثين عاما[٢٠].

كما أن إنتاج الحبوب فى الاتحاد السوفييتى لم يصل فى أى وقت إلى مستواه فى أواخر العهد القيصرى، ولكن الحفاظ على الإنتاج السوفييتى كان هدفا استحال تحقيقه فى روسيا ما بعد الشيوعية. كذلك فإن مخططات خصخصة الأراضى التى أعدت بصورة خاطئة لم تؤد إلا إلى زيادة متاعب عمال الريف الذين لم تعد الرأسمالية الفلاحية بالنسبة لهم حتى مجرد ذكرى. وإذا كان التحول إلى جماعة الزراعة قد خلق پروليتاريا ريفية فى روسيا، فإن الغاءالتحول الإلزامى إلى جماعية الزراعة قد أنتج طبقة دنيا ريفية.

والفكر الذى ألهم إصلاح السوق فى روسيا يختلف عن اللينينية فى النظام الاقتصادى الذى سعى إلى إقامته. ولكن نتائجه من حيث المعاناة البشرية والدمار الاقتصادى كانت مماثلة بدرجة مذهلة.

فعلى غرار اليوتوپيا التى تصورها لينين، كانت السوق الحرة العالمية تهدف إلى إيجاد وضع للأمور لم يوجد أبدًا من قبل فى المجتمع البشرى - ويذهب إلى مدى أبعد كثيرا من السوق الحرة البريطانية فى منتصف العصر الڤيكتورى - والنظام الاقتصادى الدولى الليبرالى الذى كان قائما حتى عام ١٩١٤. ففى سوق حرة عالمية لا تكون حركات السلع والخدمات ورءوس الأموال مقيدة بضوابط تفرضها أي دولة ذات سيادة، وقد انتزعت الأسواق من مجتمعاتها وثقافتها الأصلية. فهذه يوتوپيا منفصلة عن التاريخ، ومعادية لاحتياجات البشر الحيوية، وهى أخيرا تؤدى إلى تدمير للتراث أشد من أية محاولة أخرى أجريت فى هذا القرن.

وسياسة «دعه يعمل» على النطاق العالمى لا تتطلب قيام نظم شمولية. وهى لا تمد نطاق عمل الدولة بحيث يشمل كل المؤسسات الأخرى، وإنما تحد منه بحيث لا يتجاوز

---

(٢٠) «Russian farm reform's fruit: a rural underclass»، فى جريدة **انترناشونال هيرالد تريبيون**، عدد ٢ من أبريل عام ١٩٩٧.

أكثر وظائفها اتجاها للقمع. ويجرى تحويل كثير من وظائف الضبط الاجتماعى إلى الأسواق التى تتولى صياغة الرأى العام وتشكيل تفضيلات المستهلكين.

إن السوق الحرة العالمية هى يوتوبيا لما بعد الشمولية. وهى تتطلب ممارسة العنف أساسًا عند أطراف قوتها وفى المراحل المبكرة لقيامها.

ويمثل كل من النظام السوفييتى والسوق الحرة تجربة فى الترشيد الاقتصادى. ويقول المتعاملون فى السوق الحرة إن الإنتاجية غير المسبوقة لنظام اقتصادى رشيد ستؤدى إلى زوال أسباب النزاع الاجتماعى والحرب. أما الماركسيون السوفييت فقد دأبوا على تأكيد أن الإنتاجية الآخذة فى الارتفاع ستقوم من تلقاء نفسها بحل غالبية المشكلات الاجتماعية. ويعطى كل من الطرفين الأولوية للنمو الاقتصادى على جميع الأهداف والقيم الأخرى.

وشأن البلاشفة، فإن الدعاة الأساسيين للسوق الحرة معادون بشكل صارم لأى تراث يقف فى طريق ما يرون أنه تقدم اقتصادى. وإذا تطلبت أهدافهم التضحية ببضع ثقافات تعترض طريقها، فذلك ثمن لا يتقاعسون عن دفعه.

إن سياسة «دعه يعمل» على النطاق العالمى، والمشروع الشيوعى الذى كان يبعث الحياة فى الاتحاد السوفييتى السابق، لديهما أعداء متماثلون كثيرون. فهما معاديان للاختلافات الوطنية والثقافية فى الحياة الاقتصادية وللموروثات من الأعراف والتاريخ. كما أنهما يبغضان تأخر الفلاحين والحياة القروية، ولا يتسامحان مع الفردية الجامحة للبورچوازية ولا مع عناد العاملين.

والضحايا الرئيسيون للسوق الحرة العالمية، وكذلك ضحايا شيوعية الحرب، هم الفلاحون - وبدرجة أقل، وإن تكن ملحوظة - والعمال الصناعيون فى المدن والطبقات الوسطى المهنية.

العلاج بالصدمة: يوتوبيا غربية أخرى

يبدو أن قدر روسيا فى القرن العشرين هو أن تستخدم كحقل لاختبار يوتوبيات غربية. وقد كانت الشيوعية السوفييتية واحدة من تلك اليوتوبيات، ولكن كان منها أيضا

إصلاحات جورباتشوف وسياسات العلاج بالصدمة التى أعقبت انهيار الاتحاد السوفييتى[٢١].

إن النظام السوفييتى الذى سعى جورباتشوف إلى تجديده لم يكن قابلا للإصلاح. فقد كان فاقدًا للشرعية السياسية فى روسيا وفى «الخارج القريب» لدى القوميات السوفييتية. ولم يكن الاقتصاد السوفييتى يعمل خارج القطاع العسكرى الضخم إلا بالقدر اللازم لتغطية السوق السوداء **والسوق الرمادية**[*]. وكان «عصر الركود» فى أيام بريجنيف عصر الازدهار لبعض الأشخاص فى بعض مناطق الاتحاد السوفييتى لأنه جعل من الفساد مؤسسة قائمة، وبالتالى أتاح لمبادلات السوق أن تزدهر.

وقد بدأ برنامج جورباتشوف الإصلاحى كحملة لمناهضة الفساد. وكان غرضه الرئيسى «تسريع» الاقتصاد، ولكن كان من بين نتائجه تباطؤ الاقتصاد، ثم أعقب ذلك الانهيار. فالنظام السوفييتى للتخطيط المركزى ما كان ليستطيع أن يعمل من غير الأسواق التى أدانها بالإجرام.

وكانت سياسات العلاج بالصدمة التى فرضت فى أعقاب النظام السوفييتى، هى فى جانب منها اعتراف بأن النظام الاقتصادى السابق قد انهار تماما، ولكنها كانت أيضا محاولة لإعادة بناء روسيا وفقا لنموذج آخر من نماذج اليوتوبيات الغربية. وهى سياسات كانت قد حققت بعض أهدافها فى دول أخرى، وإن كان قد ثبت عدم ملاءمتها لروسيا.

وفى الوقت الذى طبق فيه العلاج بالصدمة فى أواخر عام ١٩٩١، كان من المستحيل إجراء انتقال تدريجى من التخطيط المركزى، فالاقتصاد السوفييتى القديم كان قد تحلل تقريبا. وكانت سياسات جورباتشوف القائمة على إعادة البناء (البيريسترويكا) والمصارحة السياسية (الجلاسنوست) قد أفضت إلى فوضى. فلم تتمزق فقط مؤسسات التخطط المركزى، بل تمزق أيضا جانب كبير من جهاز الدولة السوفييتية. ولم يكن هناك جهاز قادر على تنفيذ برنامج للإصلاح التدريجى. كما لم يكن تفكيك المؤسسات والسياسات

---

(٢١) ناقشت المرحلة الأخيرة من القيصرية فى فصل بعنوان «**Totalitarianism, reform and civil society**» فى كتابى، Post - liberalism، المرجع السابق، الصفحات ١٦٤ إلى ١٦٨. انظر أيضا، پ، جاتريل، **The Tsarist Economy 1850 - 1917**، لندن: ب. ت. باتسفورد، ١٩٨٦.

(*) **Grey market**: السوق الرمادية هى السوق غير الرسمية التى يتم فيها شراء وبيع الإصدارات الجديدة من الأسهم قبل طرحها فى بورصة الأوراق المالية - المترجم.

القديمة على مراحل من الخيارات المتاحة لأول حكومة فى روسيا فى مرحلة ما بعد الشيوعية.

وكان أهم ما ورثه بوريس يلتسين من ميخائيل جورباتشوف هو استحالة التدرج. **وكان المؤيدون الأساسيون لإصلاحات هذا الأخير هم دائما ممن يشكلون الرأى العام فى البلدان الغربية؛ وفى الاتحاد السوفييتى كانت البيريسترويكا تثير السخرية والازدراء.**

إن إصلاحات جورباتشوف كانت بوضوح غير قابلة للتنفيذ، بحيث رأى مراقب غربى فى صيف عام ١٩٨٩ أن الاتحاد السوفييتى قد وصل إلى وضع يمكن وصفه بأنه عشية ثورة: «إن ما نشهده فى الاتحاد السوفييتى ليس إصلاحا فى منتصف الطريق، بل بداية لثورة لا يستطيع أحد أن يتنبأ بمسارها»(٢٢).

ذلك أن سياسات جورباتشوف قد كشفت عن نظام تضاءلت شرعيته إلى درجة أن أول المستفيدين منه، وهم كبار المسئولين الشيوعيين، لم يكونوا على استعداد للجوء إلى القمع دفاعًا عنه. وكان أمرا فريدا أن إمبراطورية لها تاريخ مفزع فى القمع كفت عن الوجود دون عنف شديد سواء من جانب الحكام أو المحكومين. وعندما أجهض الانقلاب الذى دُبِّر ضد جورباتشوف، فى الفترة من ١٩ إلى ٢١ من أغسطس عام ١٩٩١، كان من الواضح أن العصر الجديد، عصر ما بعد السوفييت، قد أصبح أمرا لا رجعة فيه(٢٣).

وكان تعيين ييجور جيدار فى نوفمبر عام ١٩٩١ للإشراف على انتقال روسيا إلى اقتصاد السوق قد بيّن أن يلتسين أدرك أن الإصلاح عن طريق سلسلة من التدابير المنظمة لم يعد ممكنا، لو أن ذلك كان ممكنا فى أى وقت. ولم يكن هناك مفر من نوع ما من العلاج بالصدمة - باتخاذ تدابير سريعة وراديكالية وبعيدة الأثر - وليس إصلاحات تدريجية وعلى خطوات.

غير أن النماذج التى استند إليها العلاج بالصدمة فى روسيا - وهى النماذج التى نجحت فى السيطرة على التضخم فى بعض بلدان أمريكا اللاتينية، ومحاكاة ذلك النجاح فى

---

(٢٢) چون جراى، «The risks of collapse into chaos»، فى جريدة فاينانشيال تيمس، عدد ١٣ من سبتمبر عام ١٩٨٩.

(٢٣) أجريت تقييما مبكرا للانقلاب السوفييتى الذى وقع فى أغسطس عام ١٩٩١ فى كتابى **The Strange Death of Perestroika, Causes and Consequences of the Soviet Coup**، لندن: معهد الدفاع الأوروبى والدراسات الإستراتيجية، سبتمبر عام ١٩٩١.

بولندا ما بعد الشيوعية ـ لم تكن أمامها فرصة تذكر للتطبيق فى روسيا. كما أن العمر الطويل الذى عاشه النظام الشيوعى فى روسيا، والحجم الهائل للمجمع العسكرى الصناعى الذى يستأثر بما يقرب من ثلث الناتج المحلى الإجمالى[٢٤]، كانا فريدين فى بابهما. وعلى نحو أكثر تعميما، فإن الضعف الذى كان يتسم به فى روسيا كل ما له نسب للمؤسسات المدنية التى جعلت بولندا أول بلد يخرج على الشيوعية ـ فضلا عن عدم وجود أعراف راسخة لدوائر أعمال خاصة شرعية ـ كان معناه عدم توافر الشروط اللازمة لنجاح العلاج بالصدمة. ذلك أن العلاج بالصدمة يفترض مسبقا وجود مجتمع قوى، واقتصاد نابض بالحياة، وإن يكن مكبوتا. والعلاج بالصدمة لا يمكن أن يخلق هذين الشرطين، وإذا ما طبق بغير وجودهما فمن المتوقع أن يسفر عن نتائج معاكسة.

ومع التخلى بصورة فعالة عن العلاج بالصدمة فى الفترة ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤، كان من الواضح أن يلتسين قد أدرك أنه من المستحيل غرس نموذج للاقتصاد الغربى بسبب ظروف روسيا، فضلا عن تاريخها الطويل.

ولا يمكن لأحد أن ينكر تكاليف العلاج بالصدمة وفشل هذا العلاج. غير أن ذلك لا يعنى أنه كانت هناك سياسة بديلة قابلة للتطبيق لإنجاز الإصلاح الاقتصادى فى أواخر عام ١٩٩١. وكان من المعقول القول بأن التغيير خطوة خطوة لم يكن مستطاعا فى ظروف الكارثة التى حلت فى الفترة ١٩٩١ ـ ١٩٩٢، ولكن كان من غير المعقول توقع أن تكون للسياسة التى سبق أن طبقت بقدر من النجاح فى بوليڤيا أوپولندا نتائج مماثلة فى الظروف التى كانت سائدة فى روسيا[٢٥].

---

(٢٤) **OECD Economic Survey: The Russian Federation**، پاريس: مركز التعاون مع الاقتصادات التى فى مرحلة انتقال.

(٢٥) انظر بحثى بعنوان **Post - Communist Societies in Transition: A Social Market Perspective**، لندن مؤسسة السوق الاجتماعية، ١٩٩٤، الذى أعيد نشره بوصفه الفصل الخامس من كتابى **Enlightenment's Wake: Politics, and Culture at the Close of the Modern Age**، لندن ونيويورك: روتلدج، ١٩٩٥. وتوجد دراسات نقدية قوية للعلاج بالصدمة فى چوناثان ستيل، **Eternal Russia**، لندن: فاير، ١٩٩٤؛ مارشال جولدمان، **Lost Opportunity: Why Economic reforms in Russia Have Not Worked**، نيويورك: نورتون، ١٩٩٤؛ م إيلمان، **«Shock Therapy in Russia: Failure or Partial Succes?»** تقرير بحثى أعده راديو أوروپا الحرة/ راديو الحرية، ٣ من أبريل عام ١٩٩٢.
وقد أجاب چيفرى ساخس على نقدى فى كتابه، **Understanding Shock Therapy**، لندن: مؤسسة السوق الاجتماعية، ١٩٩٤. وقد أعد صمويل بريتان عرضا مفيدا للاختلافات بين آرائى=

ولم يكن فى الوسع تجنب كثير من التكاليف البشرية التى ترتبت على تلك السياسات. فهى قد فرضت على حكومة يلتسين باعتبارها قدراً تاريخيّا - أى تركات النظام السوفييتى وبرنامج الإصلاح الفاشل على يد جورباتشوف. ولكن جانبا من مأساة العلاج بالصدمة كان مرجعه أن ذلك العلاج كان محاولة لأن تستورد روسيا نظاما اقتصاديا يقوم على نظريات آدم سميث.

ومن قبيل المفارقة التى تكاد أن تكون حتمية، أن هناك جوانب مشتركة كثيرة بين نظرية سميث هذه فى التحديث الاقتصادى والنظريات الماركسية التى قامت المؤسسات السوفييتية على أساسها. وكما قال چوناثان ستيل: **«إن نظرية كارل ماركس بشأن الحتمية التاريخية قد تبنتها ذرية جديدة من المهندسين الاجتماعيين، المستقرين فى صندوق النقد الدولى، ووزارة الخارجية الأمريكية، وحكومات أوروبا الغربية، وهيئات تحرير معظم الصحف الغربية الرئيسية»**(٢٦).

وثمة سمة مميزة دائمة فى كل هذه العقائد، هى قبولها لأفكار الترشيد الاقتصادى. وفى عام ١٩٢٠ علق برتراند راسل على النظرية المادية الماركسية فى التاريخ، التى استند إليها المشروع البولشفى فى روسيا، بقوله:

إن رغبة المرء فى تقدم اقتصاده الخاص أمر معقول نسبيا. وكان فى رأى ماركس - الذى ورث من الاقتصاديين الأرثوذكس البريطانيين فى القرن الثامن عشر سيكلوچية الترشيد - أن السعى للإثراء الشخصى يبدو هو الهدف الطبيعى لأفعال الإنسان السياسية. ولكن علم النفس الحديث غاص إلى أعماق أبعد فى محيط الخبل الذى يسبح فوقه فى أمان الزورق الضئيل للعقل البشرى، ولذا فإن **التفاؤل الفكرى**(*) الذى ساد فى عصر سابق لم يعد ممكنا لدى الباحث الحديث فى الطبيعة البشرية. ومع ذلك فإن هذا التفاؤل مازال باقيا

= وآراء جيفرى ساخس فى مقال له بعنوان **«Post - Communism: the rival models»**، فى جريدة فاينانشيال تيمس، عدد ٢٤ من فبراير عام ١٩٩٤؛ ويوجد عرض أكثر شمولا للمناقشة التى دارت بينى وبين ساخس فى كتاب روبرت سكيدلسكى، **Russia's Stormy Path to Reform**، لندن: مؤسسة السوق الحرة، ١٩٩٥.

(٢٦) چوناثان ستيل، **«Russia: Boom or bust»**، جريدة أوبزرفر، عدد ٢٩ من ديسمبر عام ١٩٩٦، الصفحة ١٦.

(*) **Optimism**: الاعتقاد بأن الخير ينتصر فى نهاية المطاف على الشر، وبأن العالم الحاضر هو أفضل عالم ممكن - المترجم.

فى الماركسية مما يجعل الماركسيين جامدين ومتعصبين فى تناولهم لحياة الفطرة. ومن الأمثلة البارزة لهذا الجمود التصور المادى للتاريخ[٢٧].

وراسل نفسه كان تفاؤليا. فالرؤية العقلانية للحياة السياسية، التى يكون محورها المصلحة الذاتية الاقتصادية لم تختف باختفاء الماركسية السوفييتية. فقد عادت إلى روسيا، بعد ذلك بسبعين عاما، مع الاقتصاد الليبرالى الجديد. وكان هناك نوع آخر من العقلانية يحرك التجربة الروسية القصيرة الأمد فى التحديث الاقتصادى عن طريق العلاج بالصدمة.

وهناك اعتقاد شبه ماركسى بالتفوق السياسى للمصلحة الذاتية الاقتصادية، يُفَسَّر بصورة فجة على أنه يعنى ارتفاع الدخل واتساع الخيارات أمام المستهلكين، كان هو الأساس لسياسات العلاج بالصدمة فى روسيا. وكما كانت الحال بالنسبة لنظرية المادية التاريخية التى اهتدى بها البلاشفة فى الممارسة السياسية، فإن نظريات الليبرالية الجديدة التى قام عليها العلاج بالصدمة كانت تتجاهل كلا من الاحتياجات الدائمة، وظروف روسيا وأعرافها الخاصة.

وقد صاغ جيدار سياساته تحت تأثير اقتصاديين، من أمثال چيفرى ساخس، يرون فى الرأسمالية الأمريكية نموذجا لاقتصادات السوق فى كل مكان: «إن الرأسمالية العالمية هى بالتأكيد أفضل ترتيب مؤسسى شهده العالم فى أى وقت لتحقيق الرخاء العالمى»[٢٨]. ويعتقد ساخس أن مما يشجع على الرخاء العالمى أن تصبح مؤسسات السوق الحرة الأمريكية عالمية النطاق. وهو لا يرى سببا يجعل من روسيا استثناءً من هذا الافتراض[٢٩].

والحقيقة أنه لا الوضع الذى كان قائما فى روسيا فى أوائل التسعينيات، ولا تاريخ روسيا الطويل، كان يسمح بإعادة تنظيم الاقتصاد وفقا لأىٍّ من تلك النماذج الغربية. فالعمى الاستثنائى بالتاريخ كان هو وحده الذى يسمح للمستشارين الغربيين، من أمثال ساخس، بتصور أن مسألة هوية روسيا، وهل هى أوروبية أم آسيوية، وهى المسألة التى لم

---

(٢٧) ب. راسل، المرجع السابق، الصفحة ٨٥.

(٢٨) چيفرى ساخس «Nature, nurture and growth»، فى جريدة ذى إيكونومست، ١٤ من يونيه عام ١٩٩٧، الصفحة ٢٤.

(٢٩) من أجل الاطلاع على دفاع عن آراء ساخس، انظر، چيفرى ساخس **Understanding Shock Therapy**، المرجع السابق.

تجد حلاً منذ أيام بطرس الأكبر، يمكن تسويتها فى غضون بضع سنوات من إصلاح السوق.

وكان جوهر برنامج جيدار هو تحرير الأسعار. وفى ٢ من يناير عام ١٩٩٢ ألغيت ضوابط الأسعار المفروضة على ٩٠ فى المائة من السلع المتداولة فى التجارة. وفى اليوم التالى اختفت الطوابير من أمام المتاجر ـ وارتفعت الأسعار بنسبة ٢٥٠ فى المائة. ولم ترتفع الأجور إلا بما يقرب من ٥٠ فى المائة، وبذلك أصبحت المؤسسات لبعض الوقت أكبر ربحية. وعندما تم تحرير الأسعار كان جانب كبير من الاقتصاد تحت سيطرة الاحتكارات بحيث حقق المحظوظون المتحكمون فيها كسبا غير مرتقب، على حين ازدادت أوضاع غالبية الناس سوءاً.

وقال سكيداسكى عما قام به جيدار من تحرير الأسعار إنه «**فى تلك السنة الأولى عانى الروس معاناة رهيبة، وانخفض مستوى معيشتهم بما يقرب من ٥٠ فى المائة، ولم يعد باستطاعتهم مواصلة الحياة إلا بالتعلق بقطع الأرض الصغيرة الخاصة بهم وإنتاج غذائهم بأيديهم**»[٣٠].

وكان العنصر الثانى فى برنامج جيدار للعلاج بالصدمة، وهو الخصخصة، ينطوى على كثير من أوجه عدم الإنصاف بحيث كان بداية مشئومة لتجدد الرأسمالية الروسية فى فترة ما بعد الشيوعية. وقد بدأت الخصخصة فى يوليه عام ١٩٩٢ على أيدى أناتولى تشوبايس، وهو من رجال الاقتصاد فى لينينجراد، وأصبح فى نوفمبر ١٩٩١ رئيسا للجنة الاتحاد السوفييتى لممتلكات الدولة. وبحلول نهاية عام ١٩٩٤ كانت حكومة جيدار قد أتمت خصخصة ثلاثة أرباع المؤسسات الصناعية الروسية المتوسطة الحجم والكبيرة الحجم، وأصبح نصف الناتج المحلى الإجمالى يتم توليده فى القطاع الخاص[٣١].

ويؤكد التاريخ التالى للخصخصة فى روسيا ما حذر منه شير فى منتصف عام ١٩٩٢، عندما قال: «**مكمن الخطر هو أن دول الغرب... ستشجع أشكالا زائفة من الخصخصة يمكن أن تعود بالفائدة على قليلين، وأن تلحق الضرر بالكثيرين. ويمكن أن تكون النتيجة، وليس لأول مرة فى التاريخ الروسى، رفضًا للقيم الغربية والتأثير الغربى**»[٣٢].

---

(٣٠) سكيدلسكى، المرجع السابق، الصفحة ١٥٢.

(٣١) فيما يتعلق ببرنامج الخصخصة فى روسيا، انظر، ج. د. بلازى، م. كروموفا، د. ريوز، **Kremlin Capitalism, Privatizing the Russian Eccnomy**، لندن وإيثاكا: إدارة النشر بجامعة كورنيل، ١٩٩٧.

(٣٢) جيمس شير، «**Russia's defence industry - conversion or rescue**»، فى مجلة **Jane's Intelligence Review**، عدد يوليه ١٩٩٢، الصفحة ٢٩٩.

ومثلما حدث عندما تم تحرير الأسعار، لم تكن المكاسب المتحققة من الخصخصة موزعة توزيعا متساويا. فقد سمح للعمال والمديرين بأن يشتروا مجموعات كبيرة من الأسهم بشروط خاصة، ترتب عليها أن كان المطلعون على بواطن الأمور داخل المؤسسات (المديرون والعمال) هم أصحاب المصلحة فى ٧٠ فى المائة من جميع المؤسسات. وكانت القسائم التى تصدر لأفراد الجمهور لتتيح لهم حق شراء سهم يقوم بشرائها أولئك المطلعون على ما وراء الكواليس. وقد تمكن المديرون فى حالات كثيرة من الإثراء من ممتلكات الدولة السوفييتية السابقة.

وكما حدث فى معظم البلدان الأخرى فى فترة ما بعد الشيوعية، فان من استفادوا من الخصخصة فى روسيا، من أعضاء الحزب المحظوظين، كانوا يزيدون بحوالى مليون ونصف مليون شخص على جميع من استفادوا منها على نطاق روسيا. والأرجح أن انتقال الأصول من المؤسسات التى كانت مملوكة للدولة إلى أقلية ثرية سوف يستمر لبعض الوقت، إذ إن العمال يبيعون أسهمهم ليحصلوا على النقد السائل الذى يحتاجون إليه لمواجهة ضرورات الحياة.

وبرغم ذلك ففى أواخر عام ١٩٩٤ كان أكثر من ٤٠ فى المائة من أسهم الشركات المتوسطة الروسية التى تمت خصخصتها مازال مملوكا للعمال، وأكثر من ١٠ فى المائة مازال مملوكا للدولة. ويبدو أن هذا النمط التعددى للملكية سوف يستمر. ذلك أن الرأسمالية الروسية لن تتطور نحو النموذج الأنجلوسكسونى للملكية حاملى الأسهم، بل سينشأ نظام تعددى يضم مؤسسات كثيرة يديرها مالكوها كما هى الحال فى ألمانيا.

وكان العنصر الثالث فى سياسات جيدار للعلاج بالصدمة هو تثبيت مالية الدولة. وتمشيا مع السياسة التى يروج لها دائما صندوق النقد الدولى، كان جيدار يسعى إلى وضع ميزانية متوازنة لا يتم فيها طبع النقود لمجرد تمويل أنشطة حكومية. وتبعا لذلك اختزلت المشتريات العسكرية بما يقرب من الثلثين، وخُفِّضت الإعانات التى كانت تقدم لدعم الصناعة تخفيضا شديدا. وحدث نقص حاد فى النقود. ونتيجة لذلك انخفض التضخم مع بداية عام ١٩٩٦ إلى ما يقرب من ٤٠ فى المائة. وبذلك حققت هذه السياسة نجاحا فى الجانب الضيق المتعلق بمكافحة التضخم.

ولم يحدث أن كان لدى روسيا فى أى وقت «سياسة للتثبيت» من النوع الذى خفَّض التضخم بشدة فى پولندا - والذى يقوم على ارتفاع مفاجئ قصير الأجل فى الأسعار يعقبه

استقرار نسبى فيها، مما أدى ببعض دعاة العلاج بالصدمة إلى القول بأن هذا العلاج لم يطبق تطبيقا حقيقيا فى روسيا[٣٢]. ولكن حجتهم هى فى أفضل الأحوال حجة غير قاطعة، لأن نفس الظروف السياسية التى أدت إلى جعل التدرج أمرا غير وارد، هى أيضا التى استبعدت إحداث صدمة نقدية قصيرة الأجل. وتغيرات العملة فى روسيا ترتبط لدى الشعب بنظام ستالين، وأى برنامج للإصلاح الاقتصادى بدأ بتغيير العملة لم يكن فقط مفتقرا إلى الشعبية، بل مفتقرا أيضا إلى الشرعية بدرجة خطيرة ومنذرة بالخطر.

والنتائج السياسية للعلاج بالصدمة لم تكن على هوى مؤيديه. ففى الانتخابات البرلمانية التى أجريت فى ديسمبر عام ١٩٩٣ لم يحرز «حزب الخيار الروسى» الذى يتزعمه جيدار إلا على ١٣ فى المائة فقط من أصوات الناخبين، على حين أن حزب فلاديمير جرينوفسكى المعادى للسامية والمعادى للأجانب، والذى يحمل اسما لا صلة له به، وهو « الحزب الديمقراطى الليبرالى »، أحرز ٢٤ فى المائة. وهكذا فإن العلاج بالصدمة الذى كان يجسد الإستراتيجية الوحيدة المتاحة، لم يعد ممكنا استمراره من الناحية السياسية، ذلك أن تكاليفه الاجتماعية أصبحت أفدح من أن تحتمل.

التكاليف الاجتماعية للعلاج بالصدمة فى روسيا

لا يمكن الادعاء بأن الفقر والجريمة كانا غير معروفين فى الاتحاد السوفييتى. ومع ذلك فإن العلاج بالصدمة جلب معه المزيد من إفقار غالبية الروس، وجعل الجريمة مرتبطة بالاقتصاد ارتباطا غير مسبوق.

فقد ترتب على انهيار النشاط الاقتصادى، وتفكك الخدمات التى تقدمها الدولة، انخفاض المستويات المعيشية لغالبية السكان، ودفع جزء منهم إلى العوز المطلق، والقضاء التام على قرابة نصف الطبقتين الوسطى والمهنية، وانخفاض معدل المواليد والأجل المتوقع (متوسط الأعمار) انخفاضا أشد مما حدث فى أى بلد حديث آخر فى وقت السلم. وفى الوقت نفسه أصبح الروس جميعا، نتيجة لتراخى قبضة الدولة، عرضة للاستغلال من جانب الجريمة المنظمة.

---

(٣٣) من أجل الإلمام بصيغة معتدلة للحجة القائلة بأن العلاج بالصدمة لم يكن يطبق بصورة متسقة فى روسيا، انظر، رتشارد لايارد وچون پاركر، **The Coming Russian Boom**، نيويورك: ذى فرى پرس، ١٩٩٦، الصفحة ٦٥ وما بعدها.

يقول بيتر تروسكوت ، فى المسح الذى أجراه لآثار إصلاح السوق : « كان للإصلاحات الاقتصادية فى الاتحاد الروسى أثر مدمر على غالبية الشعب »[٣٤] . ففى الفترة مابين ديسمبر عام ١٩٩١ وديسمبر عام ١٩٩٦ زادت أسعار السلع الاستهلاكية ١٧٠٠ مرة ، ونتيجة لذلك لم يعد لدى ٨٠ فى المائة من الأهالى الروس مدخرات من أى نوع .[٣٥] ويمثل أصحاب الدخل المنخفض حوالى ثلث السكان (ما بين ٤٤ و ٥٠ مليون شخص) ، ولكنهم مهددون بالسقوط إلى فئة المعوزين - أى الفئة التى تشغل نسبة ما بين ١٥ و ٢٠ فى المائة من السكان (من ٢٢ إلى ٢٣ مليون شخص) ، والتى لا يستطيع أفرادها شراء أدوية أو ملابس جديدة . وهناك مابين ٥ و ١٠ فى المائة من السكان (مابين ٧ ملايين و ١٥ مليون شخص) يعانون الحرمان الشديد وسوء التغذية .

وعلى وجه الإجمال ، فقد سقط حوالى ٤٥ مليون شخص فى براثن الفقر منذ بداية التحول إلى اقتصاد السوق فى عام ١٩٩١ .[٣٦] وفى الوقت نفسه ، فإن «الروس الجدد ، الذين استفادوا من إصلاحات السوق - ما بين ٣ و ٥ فى المائة من السكان ، أى حوالى من ٤ , ٤ إلى ٢ , ٧ مليون روسى - كان لديهم فى عام ١٩٩٥ دخل شهرى يبلغ فى المتوسط ما بين ٥٠٠ دولار و ١٠٠ ألف دولار !؟»[٣٧]

وقد ذكر ڤيكتور إليوشن ، الذى كان بوريس يلتسين قد عينه بعد الانتخابات الرئاسية فى عام ١٩٩٦ نائبا أول لرئيس الوزراء ، أن ربع المواطنين الروس يعيشون تحت المستوى الرسمى للكفاف ، وهو ٧٠ دولارا فى الشهر ، على حين انخفض الدخل الحقيقى للسكان بنسبة ٤٠ فى المائة ، وازداد عدم التكافؤ الاقتصادى بصورة مثيرة . إذ يذكر لايارد وباركر أن « الأثرياء الجدد أصبحوا فى وضع أفضل من ذلك الذى وجدت فيه أي فئات أخرى من قبل . . . . . ومع ذلك فإن الفوارق مازالت أقل من مثيلاتها فى الولايات المتحدة ، وإن تكن قريبة من تلك السائدة فى بريطانيا »[٣٨] . كما أن الأشخاص الذين

---

(٣٤) بيتر تروسكوت ، **Russia First Breaking with the West** ، لندن : ا . ب . توريس ، ١٩٩٧ ، الصفحة ١٢٨ .

(٣٥) مارتن وولف ، " **Russia's missed chance** " ، فى جريدة فاينانشيال تيمس ، ١٨ من مارس عام ١٩٩٧ ، الصفحة ١٨ .

(٣٦) **Russian Economic Trends** ، لندن ، دار وور للنشر ، منشلى إيديت ، ١٢من يونيه عام ١٩٩٦ ، الصفحتان ٥ و ١٦ ، وردت فى تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٣٠ و ١٤٥ .

(٣٧) تروسكوت . المرجع نفسه ، الصفحة ١٣٠ .

(٣٨) لايارد وباركر ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٠١ .

يعيشون فى مستويات قريبة من الفقر المدقع فى روسيا مابعد الشيوعية أكثر عددا بكثير من نظرائهم فى بريطانيا أو الولايات المتحدة .

كذلك ارتفعت البطالة إلى مستويات يتعذر تقديرها بدقة . وقد أفاد تقرير لمنظمة العمل الدولية أن البطالة فى روسيا بلغت ٩,٥ فى المائة فى يوليه عام ١٩٩٦ ، وإن كان التقرير يرجح أن تكون هذه النسبة أقل كثيرا من الحقيقة . هذا فضلا عن أن معونة البطالة هى على درجة من الضآلة تدفع من لا عمل له إلى عدم تسجيل اسمه كمتعطل . وتحتفظ مؤسسات كثيرة بأسماء العمال فى دفاترها تحاشيا لدفع الضرائب والتعويضات ، ولكنها لا تدفع لهم أجرا . كما كان هناك فى عام ١٩٩٤ مايقرب من خمسة ملايين شخص يعملون لبعض الوقت ، وكان مابين خمس وثلث من لديهم وظائف يرغمون على ترك وظائفهم .(٣٩)

ويؤخذ من تقرير منظمة العمل الدولية أن أكثر من ثلث السكان ينتمون إلى من يسميهم التقرير « متعطلين لايعلن عنهم » (*) ، **ويصف الأرقام الروسية الرسمية عمن لاعمل لهم بأنها « حيل إدارية » تخفى المستوى الحقيقى « بأشد الطرق الممكنة قسوة»**(٤٠) .

وقد جاء الارتفاع فى البطالة فى أعقاب انهيار تاريخى فى النشاط الاقتصادى ، إذ انخفض الأقتصاد الروسى المسجل منذ عام ١٩٨٩ بمقدار النصف ـ أى انخفاض أكبر مما حدث فى أمريكا فى فترة « الكساد الكبير » . وفى منتصف عام ١٩٩٧ كان الناتج المحلى الإجمالى الروسى مازال يتقلص ، بحيث وصل الانكماش فى النشاط الاقتصادى منذ عام ١٩٩١ إلى مايقرب من ٤٠ فى المائة .(٤١)

وقد توقفت الدولة الروسية عن دفع مرتبات كثيرين من المستخدمين ومن يعولونهم . وذكر « مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية » فى واشنطن ، أن «الحكومة لم تكن تدفع مرتبات مستخدميها والقوات المسلحة والمعلمين والعلماء . . . وكانت المرتبات والأجور والتحويلات لما يتراوح بين ٦٥ و ٦٧ مليون مواطن فى صورة متأخرات فى نهاية عام

---

(٣٩) أ . بيرمان ، " **Gloomy prospects for the Russian economy** " يوروب ـ آسيا ستاديز ، المجلد ٤٨ ، العدد ٥ ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٧٤٥ .

(*) **Suppressed unemployed** .

(٤٠) **Russian Unemployment and Enterprise Restructuring : Reviving Dead Souls** ، چنيف ، منظمة العمل الدولية ، ١٩٩٧ .

(٤١) " **Russian GDP continues to shrink** " ، فى جريد ذى فاينانشيال تيمس ، الصفحة ٢ .

١٩٩٦ . أما عن المواطنين أصحاب المعاشات التقاعدية ، البالغ عددهم ستة وثلاثون مليونا ، فإن معاشاتهم لم تكن تدفع فى مواعيدها»[٤٢] .

وثمة صعوبة تواجه قياس المستويات الحقيقية لمن لا عمل لهم فى روسيا هى ارتفاع عدد من يموتون قبل الأوان . ففيما بين عامى ١٩٩٠ و ١٩٩٥ زاد عدد الأشخاص فى سن العمل الذين ماتوا لأسباب ترتبط بتعاطى الكحول بأكثر من ثلاثة أمثال .[٤٣] كما زاد عدد حالات الانتحار بين الرجال الذين فى سن العمل بنسبة ٥٣ فى المائة فيما بين عامى ١٩٨٩ و ١٩٩٣.[٤٤] وثمة سبب آخر للموت المبكر فى روسيا مابعد الشيوعية، هو الجريمة . ففى عام ١٩٩٤ تم الإبلاغ عن ٣٠ ألف حادثة قتل عمد ، أى ثلاثة أمثال المعدل بالنسبة للفرد فى الولايات المتحدة ، وعشرة أمثال المعدل البريطانى والأوروبى .[٤٥]

وتزيد احتمالات موت الروس بالتسمم العارض عشرين مرة على احتمالات موت الأمريكيين .[٤٦] ويكمن جزء من تفسير ذلك فى تركة العهد السوفييتى ـ مستوى من التلوث لا نظير له فى أى مكان آخر من العالم ، فيما عدا الصين . يقول موّراى فيشباخ وألفريد فريندلى فى كتابهما المهم **اغتيال البيئة فى الاتحاد السوفييتى**(*) « إن التلوث كان مسئولا جزئيا عن ارتفاع وفيات الأطفال فى الاتحاد السوفييتى إلى المستويات الموجودة فى بلدان العالم الثالث وفى المدن الأمريكية : « فبعد أن كانت معدلات وفيات الأطفال فى عامهم الأول قد انخفضت من ٨٠,٧ فى الألف فى عام ١٩٥٠ إلى ٢٢,٩ فى عام ١٩٧١ ، ، شهد الاتحاد السوفييتى ـ وحده بين الدول الصناعية ـ ارتفاعا فى وفيات الرضع مرة أخرى ، وفقا للحسابات الرسمية ، إلى ٢٥,٤ فى الألف فى عام ١٩٨٧ ، أى تقريبا نفس المعدل القائم فى ماليزيا ويوغسلافيا وشرق هارلم وواشنطن » . وخلص فيشباخ

---

(٤٢) وردت فى جريدة ذى إيكونومست ، عدد ١٢ يوليه ١٩٩٧ ، **Russian Survey** ، الصفحة ٥ .

(٤٣) : **Grim jobs pricture emerges in Russia** " ، فى جريدة ذى فاينانشيال تيمس ، عدد ٦ من فبراير عام ١٩٩٧ ، الصفحة ٢ .

(٤٤) اليونيسيف ، **" Crisis in mortality, healthl and nutrition : Central and Eastern Europe in transition** فى مجلة **Economic and Transition Studies** ، عدد ٢ من أغسطس عام ١٩٩٤ ، ٥٣ .

(٤٥) تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحة ١٣٩ .

(٤٦) تقرير اللجنة الرئاسية الروسية بشأن المرأة والأسرة والديموجرافيا ، كما ورد فى جريدة إنديبندنت ، عدد ١٥ من مايو عام١٩٩٧ .

(*) **Ecocide in The USSR** .

وفريندلى « إلى أنه على الرغم من أن العلاقة بين إساءة استخدام البيئة والمرض ما زالت بالضرورة افتراضية وليست مؤكدة ، فإنه لايوجد شك بشأن حجم التلوث نفسه . ولا توجد فى الاتحاد السوفييتى سوى مناطق قليلة خالية من مخاطر التلوث ، ويحدث شكل ما من الظروف الإيكولوچية الحادة فى ١٦ فى المائة من مساحة البلد ، حيث يعيش خمس السكان »[٤٧] .

إن تلوث البيئة الذى دعمه فيشباخ وفريندلى بالوثائق كان هو تركة الموقف البولشفى إزاء الطبيعة .[٤٨] وفى هذا الجانب ، كما فى غالبية الجوانب الأخرى ، كان البلاشفة أتباعا أوفياء لماركس ، إذ كانوا يرون أن الطبيعة هى فى أحسن الأحوال مورد ينبغى استغلاله لمقاصد البشر ، وأنها فى أسوأ الأحوال خصم يتعين إخضاعه . وكان الموقف الغربى العدوانى من عالم الطبيعة هو الموقف الذى اهتدت به السياسات السوفييتية طوال حياة ذلك النظام . وكان ذلك أيضا أحد أسباب انهياره .

وكانت الاستجابة البطيئة من جانب القيادة السوفييتية لكارثة تشرنوبيل هى التى أشعلت فتيل أول تحركات شعبية تجتاح الاتحاد السوفييتى بكامله . وكان لهذه التحركات الشعبية دورها فى تعبئة تحالفات واسعة لمعارضة المشروعات الضخمة لبناء السدود فى سيبريا . وجنبا إلى جنب مع هذه التحركات القومية فى « **الخارج القريب** »[*] السوفييتى ، كانت هذه التحركات البيئية الواسعة النطاق - وليس سخط المثقفين - هى العوامل الداخلية الحقيقية التى حفزت على انهيار الاتحاد السوفييتى .

والتلوث فى روسيا حافل بالغموض من حيث حجمه وعواقبه البشرية . ففى مسقط رأس چنكيزخان - بالى ، فى منطقة شيتا بالشرق الأقصى الروسى - يعانى أكثر من ٩٥ فى المائة من الأطفال قصورا عقليا ، وتبلغ معدلات **المواليد الأموات**[**] خمسة أمثال المعدلات المتوسطة فى روسيا ، كما أن معدلات وفيات الأطفال أعلى بمقدار ٢,٥ مرة ،

---

(٤٧) مورّاى فيشباخ وألفريد فريندلى الصغير ، **Ecocide in the USSR : Health and Nature under Siege** ، لندن : أوروم پرس ، ١٩٩٢ ، الصفحتان ٤ و ٩ .

(٤٨) تناولت التدمير السوفييتى للبيئة الطبيعية ، وصلاته بالفلسفة الإنسانية الماركسية ، فى كتابى **Bey-ound the New Right : Markets, Government and the Common Environment** ، لندن ونيويورك : روتلدج ، ١٩٩٣ ، الصفحات ١٣٠ إلى ١٣٣ .

(*) ربما كان المقصود هناهو الجمهوريات غير الروسية التى كان يتكون منها الاتحاد السوفييتى إلى جانب الجمهورية الروسية - المترجم .

(**) **Stillbirths** : أى الذين يولدون أمواتا - المترجم .

ومعدلات انتشار **متلازمة داون** (*) أعلى بمقدار أربع مرات . وكان من المألوف أن يولد أطفال ذوو ستة أصابع فى اليد وستة أصابع فى القدم ، **وشفاه أرنبية** (**) ، **وأفواه ذئب**(***) وظهور مشوّهة ، ورءوس ضخمة ، وفاقدون لطرف أو أكثر . وكان الرمل ذو النشاط الذرى (الإشعاعى) المستخرج من مناجم اليورانيوم ، التى وفرت المواد اللازمة لصنع أول قنبلة ذرية فى الاتحاد السوفييتى ، يستخدم فى بناء المنازل والمستشفيات والمدارس ودور الحضانة . وفى عام ١٩٩٧ تفاقمت تلك التركة نتيجة لتفكك الخدمات العامة بعد انهيار الاتحاد السوفييتى . ومن أمثلة هذا التفكك أن العاملين بالمستشفى المحلى لم يقبضوا أجورهم لمدة عشرة أشهر ، وأن مدير المستشفى لم يكن باستطاعته تدبير تكلفة تدفئة مبانى المستشفى .(٤٩)

بل إن عدد السكان نفسه آخذ فى التناقص بسرعة فى روسيا ، ففى عام ١٩٨٥ كان المتوقع بالنسبة للذكور الذين فى سن الخمسين أن يموتوا فى وقت أسبق من الذكور الذين بلغوا السن نفسها فى عام ١٩٥٠ . (٥٠) وخلال عام واحد ، هو عام ١٩٩٣ ، انخفض العمر المتوقع (متوسط العمر) للذكور من ٦٢ سنة إلى ٥٩ سنة ، وهو نفس العمر المتوقع فى الهند ومصر . (٥١) وبحلول عام ١٩٩٥ كان العمر المتوقع فى روسيا أدنى من مثيله فى الصين .(٥٢)

(*) **Down's syndrome** : أو زملة داون ، والمقصود هنا « الطفل المنغولى » . وقد اكتشف هذه المتلازمة أو الزملة العالم لانجدون داون فى عام ١٨٨٦ ، وأطلق عليها اسم « المنغولية » بسبب تشابه السمات البدنية للمريض مع السمات المنغولية ، وهو مرض نادر يحدث مرة مع كل ألف ولادة ، ومع النساء اللاتى يتزوجن بعد الثلاثين . ومن أعراضه العيون المائلة والبله والطبيعة العاطفية . وقد يصل الفرد المصاب به إلى مستوى نضج خمس سنوات ، ويشعر بالسرور بمحاكاة سلوك من حوله ـ المترجم

(**) **Hare - lips** : ويوصف الطفل فى هذه الحالة بالأشرم أو أشرم الشفة العليا ـ المترجم .

(***) **Wolves' mouths** : ربما كان هذا المرض من أهم الحالات التى وصفها فرويد (١٩١٨) . والمريض هنا يعانى عددا من الأمراض النفسية ، من أهمها الهستيريا وفوبيا الذئاب التى تمتد لتشمل الخوف المرضى من الحيوانات ، ولذلك يطلق على المريض اسم الإنسان الذئب ـ المترجم . [هذه الحاشية ، والحاشيتان اللتان قبلها ، مأخوذة من موسوعة علم النفس والتحليل النفسى ، للدكتور عبد المنعم الحفنى] .

(٤٩) « **Russia's hidden Chernobyl** » ، فى جريدة جارديان ، عدد ١٥ من يوليه عام ١٩٩٧ ، الصفحة ١٠ .

(٥٠) فيشباخ وفريندلى ، المرجع السابق ، الصفحة ٤ .

(٥١) لايارد وباركر ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٠٠ .

(٥٢) المرجع نفسه ، الصفحة ١١٥ .

ومنذ عام ١٩٨٥ انخفض معدل المواليد بما يقرب من النصف . وفى الوقت الحالى يتناقص عدد سكان روسيا بحوالى مليون نسمة فى كل سنة ، وذلك مع تجاوز معدل الوفيات معدل المواليد بمقدار ٦ , ١ مرة .[٥٣] ومن المرجح أن ينخفض عدد السكان بمقدار الخمس فى غضون الأعوام الثلاثين المقبلة ، أى من ١٤٧ مليونا إلى ١٢٣ مليونا ـ وذلك انهيار ديموجرافى ليس له نظير .

ومنذ قرن مضى كان العمر المتوقع للروسى الذكر البالغ ، أعلى من نظيره اليوم بمقدار ستة عشر عاما . وبالرغم من وقوع حربين عالميتين ، وحرب أهلية ، ومجاعة ، وملايين الوفيات فى عمليات التطهير وفى الجولاج ، فإن فرصة الذكر الذى فى سن السادسة عشرة للوصول إلى سن الستين كانت من قبل أعلى بنسبة ٢ فى المائة مما هى عليه اليوم .[٥٤]

وقد استمر العمر المتوقع للروس فى الانخفاض طوال فترة إصلاح السوق . وعلقت جريدة ذى إيكونومست على ذلك بقولها « بعد انقضاء خمس سنوات على الاصلاح الاقتصادى ، انخفض العمر المتوقع ، منذ عام ١٩٩٢ ، من ٧٤ سنة إلى ٧٢ سنة للنساء . ومن ٦٢ سنة إلى ٥٨ سنة للرجال ، وذلك يضع روسيا على قدم المساواة مع كينيا»[٥٥] .

وكانت الخدمات العامة إحدى الكوارث الرئيسية للإصلاح الاقتصادى الروسى ، إذ كان تمويل الرعاية الصحية يبلغ ٤ , ٣ فى المائة من النفقات الحكومية فى الفترة السوفييتية ، وهو يبلغ الآن ٨ , ١ فى المائة . ومن يعجز عن دفع التكاليف لا يحصل على العلاج . ويلاحظ تروسكوت أنه « فى الوقت الذى كان متوسط الأجر الشهرى هو ٧٤٠ ألف روبل (١٥٣ دولارا) كان السعر المعلن لإجراء **عملية تحويل القلب** (*) فى مستشفى حكومى فى السنة نفسها يتراوح مابين ٢٨ و ٣٥ مليون روبل ، أى مايبعد كثيرا عن متناول الروسى المتوسط »[٥٦] .

---

(٥٣) « **Russian dealth rate alarms doctors** » جريدة ذى تيمس ، عدد ٣ من يونيه عام ١٩٩٧ . انظر أيضا ، م . إيلمان ، " **The increase in dealth and disease under katastroika** " ، مجلة كمبردج چورنال أوف إيكونوميكس ، ١٩٩٤ ، الصفحات ٣٢٩ إلى ٥٥ : چ . ك شابيرو ، " **The Russian mortality crisis and its causes**" ، فى العمل الجماعى الذى أعده أندرز أسلوند ، **Russian Economic Reform at Risk** ، لندن ، پنترز ، ١٩٩٥ .

(٥٤) تقرير أعدته «اللجنة الرئاسية الروسية بشأن المرأة والأسرة والديموجرافيا » بتكليف من الجهاز المرجعى الذى مقره الولايات المتحدة ، نشر فى جريدة إنديپندنت ، عدد ١٥ من مايو عام ١٩٩٧ .

(٥٥) جريدة ذى إيكونومست ، عدد ١٢ من يوليه عام ١٩٩٧ ، **Russia Survey** ، الصفحة ٥ .

(*) **Heart Bypass** .

(٥٦) تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحة ١٣١ .

وترتب على ذلك ، إلى حد ما ، زيادة كبيرة فى الإصابة بالدرن الرئوى والالتهاب الكبدى والزهرى . كذلك ينتشر **الإيدز** (*) (متلازمة نقص المناعة المكتسب) بسرعة كبيرة نتيجة لازدياد أعداد من يتعاطون المخدرات عن طريق الحقن فى الوريد ، وإن كان من المتعذر قياس حدوث ذلك فى الوقت الحالى بسبب فشل الخدمات العامة . وزاد عدد حالات الدفتريا المسجلة من ٨٠٠ حالة فى عام ١٩٩١ ، إلى ٤٠ ألف حالة فى عام ١٩٩٤ . (٥٧)

ويبدو أن الموجز الذى قدمه سيتڤن كوهين للتكاليف البشرية لإصلاح السوق فى روسيا كان يتميز بالإنصاف : « **بالنسبة للغالبية الكبيرة من الأسر ، لم تكن روسيا فى مرحلة انتقال ، بل فى حالة انهيار متصل فى كل ما هو ضرورى لوجود كريم ــ من الأجور الحقيقية ، والمساعدات الاجتماعية ، والرعاية الصحية ، إلى معدلات المواليد وتوقع الحياة ؛ من الإنتاج الصناعى والزراعى إلى التعليم العالى والعلوم والثقافة التقليدية؛ من الأمن فى الشوارع إلى ملاحقة الجريمة المنظمة والبيروقراطيين اللصوص ؛ ومن القوات المسلحة التى مازالت هائلة الحجم إلى صيانة المعدات والمواد النووية** » (٥٨) .

وكانت الآمال التى علقها على العلاج بالصدمة أنصاره الغربيون ومؤيدوه الروس مجرد أوهام . ذلك أن نظام الحرية الطبيعية الذى دعا إليه آدم سميث يفترض مسبقا وجود دولة فعالة ، بما فى ذلك سيادة القانون . فمن غير هذه الخلفية لايمكن الاعتماد على أن مبادلات السوق ستكون لها منافع ، بل إنها تصبح بدلا من ذلك مجرد نظام آخر للاستغلال .

وفى روسيا كان العلاج بالصدمة على يد جيدار تطبيقا من جانب حكومة تحولت دولتها إلى أنقاض . فسيادة القانون لم يكن لها وجود ، وهى لم تكن موجودة فى روسيا منذ عام ١٩١٧ . وكان لدى جانب كبير من السكان الروس احتراس من مبادلات السوق، ومخاوف من أن تؤدى هذه المبادلات إلى الاستغلال . وكانت هذه الأحكام المسبقة بين الأهالى تعبيرا عن توجسات روسية قديمة من التجارة عززتها تجربة الأسواق

(*) AIDS .

(٥٧) پ . مورفانت "**Alarm over falling life expectancy**" ، فى جريدة **Transition** ، پراج ، ٢٥ من أكتوبر عام ١٩٩٥ ، الصفحتان ٤٤ و ٤٥ . اقتبسها تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٣٢ و ١٤٥ .

(٥٨) ستيفن ف . كوهن " **In Fact, Russians are deep in terrible tragedy** " ، فى جريدة إنترناشونال **هيرالد تريبيون** ، عدد ١٣ من ديسمبر عام ١٩٩٦ ، الصفحة ٨ .

السوداء السوفييتية ، وعززتها بدرجة أكبر الرأسمالية الفوضوية التى ولدت من العلاج بالصدمة بعد سقوط الدولة السوفييتية التى أصابها الدمار .

الرأسمالية الفوضوية فى روسيا مابعد الشيوعية

فى أقل من عشرة أعوام انتقلت روسيا من نظام شمولى يضطلع بمهامه إلى وضع أقرب إلى الفوضى . ولم يكن سقوط الدولة السوفييتية ، كما يبدو أن مراقبين كثيرين قد اعتقدوا ، انتصاراً لسياسة الخصخصة الغربية ، بل كان حدثا عالميا - تاريخيا سيقتضى التخلص من عواقبه أجيالا عديدة ، وربما مئات الأعوام .

إن نوع الرأسمالية الذى يبزغ اليوم فى روسيا متأثر إلى حد بعيد بسلفه السوفييتى . فالأسواق الخارجة على القانون التى ترعرعت فى مختليات الدولة السوفييتية ودهاليزها تزدهر الآن بين أنقاضها .

والرأسمالية الفوضوية هى نظام اقتصادى يتميز بوجود دولة منهكة فاسدة ، وفى بعض المناطق والبيئات ليس لها وجود من الناحية الفعلية ؛ وبضعف سيادة القانون أو غيابها ، بما فى ذلك عدم وجود قانون للملكية ؛ وانتشار الجريمة المنظمة فى مجمل مناحى الحياة الاقتصادية . وبالرغم من أن هذه السمات موجودة بدرجة أو بأخرى فى كل البلدان التى كانت شيوعية فيما سبق ، فإنه يندر أن يوجد هذا النوع من الرأسمالية الفوضوية الذى قطع هذا الشوط الطويل من التطور فى روسيا . وكما كانت الحال فى روسيا ، فان هذا النوع إنما يزدهر حيث كانت الجريمة قد تفشت فى الدولة نفسها ، وحيث كانت المؤسسات المدنية التى لها استقلال ذاتى قد دمرت فى العهد السوفييتى .

وهذا النظام الاقتصادى ليس مرحلة انتقالية فى تطور مرماه اقتصاد سوق ذى طراز غربى . ولكن ذلك لا يعنى أنه لايتطور . فالأرجح أن الرأسمالية الفوضوية فى روسيا مابعد الشيوعية تتطور - ربما على امتداد أكثر من جيل واحد - إلى شىء شبيه بالرأسمالية الروسية الناجحة التى قادتها الدولة ، والتى أحدثت التنمية الاقتصادية السريعة فى روسيا فى العقود الأخيرة للنظام القيصرى .

ومثلما كانت الحال فى اليابان ، كانت رأسمالية أواخر القرن التاسع عشر فى روسيا تقودها دولة ساعية إلى التنمية . وخلال نصف القرن الذى سبق الحرب العالمية الأولى كانت روسيا تحقق تنمية سريعة بمعدلات قريبة من تلك التى أنجزتها بروسيا واليابان وبنطاق التحديث الذى حققتاه .

وعلى خلاف الرأى السائد فإن روسيا أبعد عن أن تكون دولة راكدة تسيطر عليها استبدادية آسيوية منذ قديم الزمان . فهى قد ألغت القنانة فى عام ١٨٦١ ، أى قبل عام من قيام إبراهام لنكولن بالغاء الرق فى الولايات المتحدة . وبمعايير القرن العشرين لم تكن روسيا القيصرية فى مراحلها الأخيرة دولة قمعية بشكل خاص. ففى عام ١٨٩٥ لم يكن يعمل فى « **الأوخرانا** » ، الشرطة السرية القيصرية ، غير ١٦١ موظفا يعملون كل الوقت يعاونهم فريق من رجال الشرطة يقل عدد أفراده عن عشرة آلاف ، على حين كان عدد العاملين فى « **التشيكا** » ، الشرطة السرية البولشفية ، فى عام ١٩٢١ ، أكثر من ربع مليون فرد ، وذلك دون احتساب الجيش الأحمر ، وجهاز المخابرات (NKVD) ، ورجال الميلشيا (*) . (٥٩)

ويقول لايارد وباركر إن روسيا دخلت فى أواخر القرن الماضى « مرحلة نمو اقتصادى سريع يمكن مقارنته بالنمو الاقتصادى فى بريطانيا فى أوائل القرن التاسع عشر ، أو فى أمريكا فى سبعينات القرن الماضى ، أو فى الصين اليوم . وفى الفترة بين عامى ١٨٨٠ و١٩١٧ قامت روسيا ببناء أميال من السكة الحديدية أكثر من أى بلد آخر فى العالم فى ذلك الحين ؛ وكان إنتاجها الصناعى ينمو بمعدل ٧ , ٥ فى المائة سنويا خلال الفترة كلها ، بحيث زادت سرعة النمو فى الأعوام التى سبقت الحرب العالمية الأولى إلى ٨ فى المائة»(٦٠) . أى أن الفترة الأخيرة من القيصرية لم تكن فترة ركود ، وإنما فترة تحديث يتقدم بسرعة .

وبرغم ذلك فإنه لم يكن عهدا ذهبيا . فالمرحلة الأخيرة من القيصرية كان تعيبها سياسات الترويس (فرض الطابع الروسى) ، والعداء للسامية ، وبيروقراطية عقيمة

(*) **الأوخرانا** : شرطة دفاعية تأسست فى روسيا فى عام ١٨٨١ لمكافحة الإرهاب . وكانت مسئولة عن اغتيال الدوق سرجيوس ، وبلغت أنشطتها ذروتها فى الفترة ١٩٠٦ ـ ١٩١٧ ؛ وبداية من عام ١٩١٧ ، بعد استيلاء البلاشفة على السلطة ، أسس لينين التشيكا التى واصلت القيام بدور «الأوخرانا» حتى عام ١٩٢٥ ، عندما استبدل بها جهاز O.G.P. U ثم فيما بعد جهاز **NKVD** ـ المترجم .

(٥٩) تناولت المرحلة الأخيرة من القيصرية بتفصيل أكبر إلى حد ما فى فصل بعنوان **Totalitarianism reform and civil society** : فى كتابى **Post liberalism** ؛ المرجع السابق ، الصفحات ١٦٤ إلى ١٦٨ . وحول مستويات القمع الأدنى كثيرا فى روسيا القيصرية منها فى الاتحاد السوفييتى ، انظر ، چون د . ضياك ، **Chekisty : a History of the KGB** ، لكسنجتون ، مساشوستس ، لكسنجتون بوكس ، د. س هيث ، ١٩٨٨ .

(٦٠) لايارد وباركر ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٨ .

باهظة الأعباء . وكانت الدولة مثقلة ليس فقط بتركة القنانة ، وإنما أيضا ، وحتى بعمق أكثر ، بعدم وجود مايشبه النبالة المستقلة التى صاحبت النظام الإقطاعي فى أوروبا . فقد افتقرت روسيا إلى طبقة من هذا القبيل منذ الحكم المركزى **لإيڤان الرابع « الرهيب »** (*) وبطرس الأكبر . وعلى خلاف اليابان ، فإن تراث روسيا الحديث لم يكن تراثا إقطاعيا ، بقدر ماكان استبداديا . وعلى خلاف الصين كان على التحديث فى روسيا دائما أن يواجه تركة القنانة .

ومع ذلك فعند مقارنة القيصرية فى مرحلتها المتأخرة بالدول النامية الأخرى ، وبما أتى بعد ذلك ، فقد كانت قصة نجاح . وليس هناك يقين بشأن ماكان يمكن أن تحققه من استقرار فى التنمية لو لم تنشب الحرب العالمية الأولى . ولكن لاشك فى أن التاريخ التقليدى للقيصرية فى هذه المرحلة يستخف بحجم ما أنجزته من تحديث .

والنموذج المرجح للتنمية الاقتصادية فى روسيا فى القرن الحادى والعشرين هو الرأسمالية التى تقودها الدولة ، والمعتمدة على منشآت كبرى غالبا مايكون طابعها **احتكار القلة** (**) ـ الرأسمالية التى تعمل فى توافق مع الرأسمالية الحدودية الجامحة فى سيبريا وغيرها من المناطق ، والتى نشأت فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر .

ولن تحدث تلك التنمية بصورة مطردة ، بل ستفرض عليها صراعات كثيرة بين المدينة والريف ، وفيما بين المناطق ، والمصالح الاقتصادية المتنازعة ، وستجرى على خلفية دولة روسية ستظل من نواح عديدة أضعف من سابقتها فى روسيا القيصرية .

والرأسمالية الروسية التى تولد اليوم قد شوهتها حتما ظروف نشأتها . فاصلاحات السوق جرت فى ظل خلفية لم يلحق فيها الانهيار بالاقتصاد وحده ، بل لحق بالدولة السوڤييتية أيضا . ومع ذلك فإن الميراث السوڤييتى كان له تأثير عميق فى تشكيل المراحل المبكرة للتنمية الاقتصادية فى مرحلة مابعد العهد السوڤييتى . وعندما ننظر إلى الرأسمالية الروسية التى ولدت فى الدهاليز المظلمة من الدولة السوڤييتية ، نرى أنها ما كان يمكن أن تولد بعيدة عن ارتباطاتها المتعددة بالجريمة .

(*) إيڤان الرابع : (١٥٣٠ ـ ١٥٨٤) ، توّج قيصرا فى عام ١٥٤٧ . وسع رقعة روسيا فى اتجاه الشرق حتى شملت سيبيريا . سحق سلطة النبلاء فى الداخل ، ودعم سلطة القياصرة المطلقة ، وأنشأ جيشا خاصا لقمع الفتن . أصيب فى أخريات أيامه بخلل فى توازنه العقلى ، فكانت تنتابه نوبات من الغضب المروع قتل فى نوبة منها إبنه الأكبر ـ المترجم

(**) Oligopolistic firms .

إن التكافل بين الدولة والجريمة المنظمة له تاريخ طويل فى روسيا ، وكان قائما دائما فى قلب المؤسسات السوفييتية . فالدولة السوفييتية لم يكن يحكمها قانون : ولم يكن لديها شيء شبيه بنظام قضائى مستقل ، وكانت المدونة القانونية تسمح للدولة عمليا بسلطة تقديرية غير محدودة . وكان من المتعذر على المواطن العادى أن يلتزم بحدود القانون ـ لأن القانون نفسه كان يمكن أن يعنى أى شيء تقرره السلطات . وكانت الحياة الاقتصادية تجرى فى مناخ يسوده تجاهل مستمر للقواعد التنظيمية .

والفساد فى الاتحاد السوفييتى لم يكن مشكلة ، وإنما كان حلاً فى نظام لايستطيع أن يعمل بدونه .[٦١] وكان من الحتم فى نظر الأشخاص العاديين أن يكون لأى نوع من المنشآت ارتباطات بالجريمة ، وهى ارتباطات كثيرا ما كانت حقيقية . وكما ذكر ألين بيزانكون فى عام ١٩٧٦ :

كان هناك إلى جانب **اللااقتصاد**(*) السوفييتى اقتصاد **عينى**(**) ينطبق عليه التعريف المعتاد للاقتصاد : إدارة رشيدة للندرة ، معبَّراً عنها من خلال المحاسبة . ولكن هذا الاقتصاد غير رسمى ؛ وهو موجود خارج القانون ، ولايستطيع أن يستخدم أدوات القياس العامة . ولذا فهو سرى وغير مشروع وبدائى ، يشبه فى بعض الأحيان التجارة العربية الهائلة فى أيام ألف ليلة وليلة ، ويشبه فى أحيان أخرى تجارة **الكومبرادور**(***) الصينيين ، وفى أحيان ثالثة الصفقات التى تعقدها المافيا الأمريكية ، وأنشطة **الكوزا نوسترا**(****) فى نيويورك وشيكاغو . وهو فى حد ذاته يولد جزءاً كبيرا من الثروة القومية ، ويسمح للنظام الرسمى بأن يعمل .[٦٢]

و كانت الدولة السوفييتية نفسها تعمل كمنظمة للمافيا . وفى عهد بريجنيف تعززت

---

(٦١) من أجل الاطلاع على مناقشة توضيحية للاقتصاد السوفييتى حددت عدم قابليته للإصلاح ، انظر ، بيتر روتلند ، **The Myth of the Plan : Lessons of Soviet Planning Experience** ، لندن : هتشنصون ، ١٩٨٥ .

(*) **Non - economy** .

(**) **Real economy** .

(***) العملاء والوسطاء المحليون الذين كانوا يعملون لحساب الشركات الأجنبية التى تعمل فى الصين ـ المترجم .

(****) **Cosa Nostra** : تعبير إيطالى معناه « قضيتنا » ـ المترجم .

(٦٢) ألين بيزانكون , **The Soviet Syndrome** ، نيويورك ولندن : هاركورت بريس جوفانوفيتش ، ١٩٧٨ ، الصفحتان ٣٠ و ٣١ .

العلاقات بين منظمات المافيا وكبار المسئولين فى الحزب ، وهى علاقات كانت قائمة منذ عشرات السنين . وكان الطابع الإجرامى للاقتصاد والحكومة فى روسيا قد سبق الانهيار السوفييتى بوقت طويل : ثم ازداد قوة نتيجة للاصلاحات الاقتصادية التى قام بهاجورباتشوف ، والتى أدت إلى حدوث نقص فى السلع ترتبت عليه زيادة الدور الذى تقوم به المنظمات الإجرامية فى الاقتصاد غير الرسمى . ومن يتصورون أن الجريمة لم تكن موجودة فى العهد السوفييتى إنما يكشفون عن إخفاقهم فى فهم الدولة السوفييتية أو الاقتصاد الذى خلقته . (٦٣)

وكان سقوط الاتحاد السوفييتى فى حد ذاته فرصة سانحة للجريمة على نطاق واسع : **« لقد أصبح الاتحاد السوفييتى فى شهوره الثمانية عشر الأخيرة فردوسا للفجرة وعديمى الضمير . إذ أصبح كل إنتاجه وموارده ومستودعات ثروته نهبا مباحا ينتقل من يد لأخرى . وحدثت إعادة توزيع أخرى هائلة للأسلاب . وكان ذلك بمثابة انتزاع للأصول من أمة بكاملها »** (٦٤) .

وفى ظل النظام السوفييتى ، اندمجت روح المبادرة والنزعة الإجرامية . وعندما تحلل النظام أصبح باستطاعة العصابات الإجرامية والبيروقراطيين الحكوميين تحقيق أرباح كبيرة من إصلاحات السوق . وكان ممالا مناص منه أن تقوم المافيا بدور القابلة للرأسمالية الروسية فى مرحلة ما بعد الشيوعية .

إن ماتفكك فى الفترة ١٩٨٩ ـ ١٩٩١ لم يكن نظاما استبداديّا أو تسلطيّا من الأنواع الكلاسيكية التى تعرفها العلوم السياسية التقليدية ، وإنما كان نظاما شموليا تكاد فيه كل الأصول أن تكون ملكا للدولة . ولاشك فى أن تلك الأصول استخدمت لفترة طويلة لمنفعة نخبة صغيرة محظوظة ـ هى فئة كبار المسئولين فى الحزب . وفى ظل الظروف الشبيهة بالفوضى التى حاولت فيها الحكومة الروسية تنفيذ إصلاحاتها ، كان باستطاعة

---

(٦٣) وحول اكتساب الاقتصاد السوفييتى والدولة السوفييتية للطابع الاجرامى ، انظر ، ڤاليرى تشاليدز ، **Criminal Russia : Essays in Crime in the Soviet Union** ، نيويورك : راندوم هاوس ، ١٩٧٧ ؛ كونستانتين سيميز ، **USSR : The Corrupt Society : The Secret World of Soviet Capitalism** ، نيويورك : : سيمون آند شوستر ، ١٩٨٢ ؛ وأركادى ڤاكسبرج ، **The Soviet Mafia** ، لندن : ڤايدنفيلد آندنيكولسن ، ١٩٩١ .

(٦٤) دافيد بروس ـ چونز ، **The War that never was : The Fall of the Soviet Empire , 1985 -9** ، لندن : فيونكس ، ١٩٩٥ ، الصفحة ٣٨٢ .

هؤلاء المسئولين الكبار ، بالاتفاق مع العصابات الإجرامية فى كثير من الأحيان ، انتزاع ملكية أصول الدولة ، وجعلها ملكية شخصية لهم .

وقد كتب ستيفن هاندلمان يقول : « كانت المجمعات الأساسية لرءوس الأموال المتاحة للاستثمار المحلى بعد الانهيار السوفييتى (بخلاف القروض الأجنبية) هى خزائن الحزب الشيوعى والـ **Obshchaki** (*) ، صناديق كنوز «عالم اللصوص» . وكانت رءوس الأموال توجه إلى المؤسسات التجارية والبنوك ومتاجر السلع الفاخرة والفنادق . وهى لم تؤد فقط إلى إحداث أول فترة رواج استهلاكى فى روسيا ، ولكنها أدت أيضا إلى اندماج البيروقراطيين ورجال العصابات فى شكل روسى فريد لرئيس العصابات ـ الرفيق المجرم » (٦٥) .

وفى روسيا مابعد الشيوعية أصبحت الجريمة المنظمة موجودة فى كل مكان . فحوالى ثلاثة أرباع المؤسسات والبنوك التجارية التى تمت خصخصتها ترغم على دفع مابين ١٠ و٢٠ فى المائة من رقم أعمالها للمافيا . وبرغم أن جميع التقديرات التى من هذا القبيل لابد أن تكون رجمًا بالغيب ـ لأن جانبا كبيرا من الاقتصاد الروسى هو **اقتصاد إسود** (**) فإن التقديرات لدخل المافيا تضعه عند حوالى ٤٠ فى المائة من الناتج المحلى الإجمالى الروسى ، كما أن قرابة ٤٠ فى المائة من الأعمال الجديدة ربما حصلت على رءوس الأموال التى بدأت بها من مصادر تسيطر عليها المافيا . (٦٦) وفى النصف الأول من عام ١٩٩٥ زادت حوادث الخطف بنسبة ١٠٠ فى المائة ، وحوادث الاعتداء المسلح بنسبة ٦٠٠ فى المائة . وأصبح القتل بالتعاقد من الأمور المألوفة . ومنذ عام ١٩٩٢ تعرض خمسة وثمانون من رجال البنوك للاعتداء عليهم ، وقتل سبعة وأربعون منهم . ويعتقد أنه يوجد حوالى ١٥٠ منظمة للمافيا ، وهى تسيطر ـ استنادا إلى تقارير وزارة الداخلية الروسية ـ على ما بين ٣٥ ألف و ٤٠ ألف مؤسسة وحوالى ٤٠٠ بنك .

(*) **obshchaki** : تعبير يطلق فى روسيا على الأموال التى يقوم زعماء المافيا بجمعها لمساعدة زملائهم من زعماء المافيا المودعين فى السجون ـ المترجم .

(٦٥) ستيفن هاندلمان، **Comrade Criminal** ، نيوهافن ولندن : إدارة النشر بجامعة يل ، ١٩٩٥ ، الصفحتان ٣٣٥ و ٣٣٦ .

(*) **Black Economy** : ويقصد به البضائع والخدمات التى يدفع ثمنها نقدا ، ومن ثم لا يعلن عنها ، تهربا من سداد الضرائب ـ المترجم .

(٦٦) مصدر هذه التقديرات هو الجهاز القومى البريطانى لمخابرات الجريمة . وقد وردت فى تروسكوت، المرجع السابق، الصفحة ١٣٨ .

والمافيا الروسية ليست متجانسة عرقيا ، ولا هى تعمل فى العادة متضافرة . وربما يكون جانب كبير من الانفجار الأخير لجرائم العنف انعكاسًا للحروب الخفية بين فرق المافيا المتنافسة . ومع ذلك فإن غالبية منظمات المافيا تشارك فى أصل مشترك ، هو الأنشطة الإجرامية فى الاتحاد السوفييتى السابق . وقد اجتمع فى موسكو ، فى الأيام الأخيرة للدولة السوفييتية ، فى أواخر ديسمبر عام ١٩٩١ ، حوالى ثلاثين من رؤساء المنظمات الإجرامية الروسية ليناقشوا كيفية حماية أنفسهم من العصابات الجديدة الوافدة من القوقاز ـ چورچيا وشيشينيا وأرمينيا . كما ناقشوا كيفية إفساد المسئولين فى النظام الجديد الذى رأوا ملامحه فى الأفق .[٦٧] إن بعض كبار المستفيدين من الجريمة المنظمة الروسية ليسوا من المجرمين أنفسهم ، وإنما من المسئولين الحكوميين الذين يدفع لهم المجرمون الثمن .

وقد وصف هاندلمان ذلك قائلا : « إن الذين يكسبون المليارات الآن هم فى معظمهم من كانوا يكسبون الملايين فى العصر السوفييتى ـ إما عن طريق ترتيب بيع البضائع الحكومية فى السوق السوداء ، وإما من النظام المنتشر للرشوة . والحقيقة أن الدولة القديمة قد أورثت الجريمة للدولة الجديدة »[٦٨] .

وكان فساد مؤسسات الدولة المتداعية وخروجها على القانون ، اللذان تم توريثهما لأول حكومة بعد الفترة الشيوعية ، أحد الأسباب التى جعلت العلاج بالصدمة فى روسيا غير قادر على أن يحقق ذلك القدر المحدود من الفعالية الذى استطاع تحقيقه فى أماكن أخرى . وثمة سبب آخر هو الطابع العسكرى للاقتصاد السوفييتى . فلم يحدث فى أى بلد آخر طبق العلاج بالصدمة أن كان الإنتاج العسكرى فيه محوريًا إلى هذه الدرجة فى الحياة الاقتصادية . وكان من الحماقة افتراض أن الوصفات التى وضعها آدم سميث للحرية الاقتصادية يمكن أن تكون قابلة للتطبيق فى ظروف كهذه .

وعندما تمزقت الدولة السوفييتية ، خلّفت فى أعقابها أكبر مجمع صناعى عسكرى فى العالم (**MIC**) . وقد بدأ تمزق الدولة على الفور ، وعجّل العلاج بالصدمة بتفكك أوصالها . وثبت أن هذا المجمع العسكرى الصناعى السوفييتى الذى تفككت أوصاله ،

(٦٧) هاندلمان ، المرجع السابق ، الصفحات ١٨ إلى ٢٠ .
(٦٨) المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٧ و ١٢٨ .

كان تربة خصبة للعصابات التى درجت على التنقيب فى النفايات . ويسجل هاندلمان ذلك بقوله :

بعد ستة أشهر من تفكك الاتحاد السوفييتى ، هبطت الطلبيات المتعلقة بالدفاع بأكثر من ٤٠ فى المائة ، وفقد ٣٥٠ ألف عامل وظائفهم . وبعد ذلك بسنة كانت المصانع المتوقفة عن العمل من الكثرة بحيث إن ما يقدَّر بمليون عامل كانوا يحصلون على أجورهم دون أن يؤدوا أى عمل . . . . . وفى مدينة ييكاترينبرج ، حيث يعمل فى الصناعات العسكرية ما يقرب من ربع قوة العمل فيها ، أى حوالى خمسمائة ألف شخص ، كانت العصابات المحلية تمثل جانبا من أهم الزبائن لشراء القنابل ومنصات إطلاق الصواريخ التى كانت ذات يوم تذهب إلى الدولة . كما كان أمراء الرعاع والمتربحون فى السوق السوداء يوفرون القوة السياسية الفعالة والاتصالات الدولية اللازمة لتسويق المواد الأولية الإستراتيجية والأسلحة والمعادن فى الخارج .(٦٩)

وكان المجمع العسكرى الصناعى السوفييتى فى مقدمة ضحايا إصلاح السوق . وقد أفاد تقدير أجراه البنك الدولى فى عام ١٩٩٢ أن هذا المجمع كان يستخدم أكثر من خمسة ملايين شخص (حوالى ٧,٥ فى المائة من قوة العمل) . واستنادا إلى تقدير روسى حديث كان العاملون فى المجمع العسكرى الصناعى ، بالإضافة إلى أفراد عائلاتهم ، يصلون إلى أكثر من ٣٠ مليون نسمة ، أى قرابة ثمن مجموع السكان .(٧٠)

وفى ظل سياسات جيدار للعلاج بالصدمة ، تم تخفيض مشتريات السلاح بحوالى ٧٠ فى المائة . وبحلول عام ١٩٩٣ كان الناتج الكلى للصناعة العسكرية الروسية قد انخفض إلى النصف . ولم يكن ذلك ، فى معظم الأحوال ، انعكاسا للتحول من الإنتاج العسكرى إلى الاستخدامات المدنية ، وإنما كان انخفاضا صرفا فى النشاط الاقتصادى للمجمع العسكرى الصناعى . وفى ذلك كتب أرباتس يقول : « فى عام ١٩٩٢ تبين أن معدل الأجور فى المصانع التابعة للمجمع العسكرى الصناعى ، البالغ عددها ١١٠٠ مصنع ، يقل عن مثيله فى أى فرع آخر من فروع الصناعة ، وذلك بسبب الاقتطاعات

---

(٦٩) المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٣٣ و ٢٣٤ .

(٧٠) ياروسلاف جولوفانوف : **Mech molet** (السيف والمطرقة) ، ڤيك ، ١٩٩٣ . وقد أشار يفجينى أرباتس إلى هذا المصدر فى كتابه **KGB : State within a State** ، لندن ونيويورك : أ. ب تاوريس ، ١٩٩٥، الصفحة ٣٨٨ .

الحكومية الشديدة (٦٨ فى المائة) فى الاعتمادات الخاصة بمشتريات التكنولوچيا العسكرية والأسلحة . . . . . ولم يكن هناك تمويل للتحويل إلى الصناعات المدنية ، وأغلقت تماما مصانع كثيرة تابعة للمجمع ، كما لم تكن هناك أموال لدفع الأجور والمعاشات التقاعدية »[٧١] .

وحاولت الحكومة الروسية إبطاء سرعة تردى الصناعات العسكرية عن طريق تشجيع مبيعات السلاح . وترتب على ذلك أنه بحلول صيف عام ١٩٩٦ ـ استنادا إلى جهاز البحوث التابع للكونجرس الأمريكى ـ أصبحت روسيا أكبر مصدِّر فى العالم للأسلحة إلى العالم النامى .[٧٢] وانخفض إنفاق روسيا على أغراض الدفاع إلى مايقرب من معدل الانفاق فى البلدان الديمقراطية الغربية . ومع ذلك فإن دور المجمع العسكرى الصناعى فى الاقتصاد الروسى والدولة الروسية مازال ، وسوف يظل ، أكبر كثيرا .

فضلا عن ذلك فإن جانبا كبيرا مما تبقى من المجمع العسكرى الصناعى الروسى لم يعد خاضعا للسيطرة الكاملة للحكومة . فهو الآن مجمع يتكون من هياكل متعددة ذات استقلال ذاتى وشبه مخصخصة . وقد عبّر شير عن ذلك بقوله : « لقد أصبحت الأذرع الرئيسية للدولة (الروسية) تعامل معاملة الكيانات شبه التجارية التى تعمل وفقا لجداول أعمال مختلطة »[٧٣] .

إن التفكك الجزئى للمجمع العسكرى الصناعى ، الذى كان هو العمود الفقرى للاتحاد السوفييتى السابق ، أدى بكثيرين من المراقبين إلى التخوف من أن تتمزق الدولة الروسية بالكامل . ويخشى آخرون من حدوث « عصر اضطرابات » آخر (١٥٩٨ ـ ١٦١٣)[*] ـ أى عصر ـ ربما يكون ممتدا ـ من الفوضى التامة أو الحرب الأهلية . وهم يشيرون إلى الحرب الدائرة فى شيشنيا باعتبارها مؤشرا على الصعوبة التى تواجهها

---

(٧١) أرباتس ، المرجع السابق ، الصفحتان ٣٣٥ و ٣٣٦ .

(٧٢) تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحة ١١٤ .

(٧٣) چيمس شير ، " **Russia : geopolitics and crime** " ، فى مجلة ذى وورلد توديى ، عدد فبراير ١٩٩٥ ، الصفحة ٣٦ .

(*) انصرمت حياة أسرة روك فى روسيا بعد وفاة فيودور الأول عام (١٥٩٨) ، ابن ايڤان الرابع (الرهيب). وكان عصر بوريس جودونوف (١٥٩٨ ـ ١٦٠٥) والفترة التى تلته عصر اضطرابات وفتن ، وظهور مطالبين كذبة بعرش روسيا . وحاولت پولندا غزو روسيا كلها ، وانتزعت موسكو . ولكن انتخاب ميشيل رومانوف قيصرا على روسيا فى عام ١٦١٣ أعاد إليها النظام ـ المترجم .

القوات العسكرية الروسية حتى فى قمع حركات العصيان الصغيرة ، ويتنبئون بتشرذم متصاعد للاتحاد الروسى .

وقد تنبأ المستثمر المضارب چيم روجرز بقوله : « إنى أتنبأ بحدوث مزيد من التفتت . وبعد حدوثه أتوقع أن أرى خمسين بلدا ، مائة بلد ـ لقد تحولت السلطة فى الاتحاد السوفييتى السابق إلى حكم القائد الذى لايدين لأحد بسلطان ، الزعيم السياسى الذى يطفو دائما إلى السطح عند انهيار السلطة المركزية . . . . . فعندما تصبح إمبراطورية ما غير مستقرة وخارجة على القانون، تأتى فترة يتقاتل فيها قادة الحروب . واليوم تشمل قائمة قادة الحروب السوفييت زعماء عصابات ، والمافيا ، وزعماء دكتاتوريين ، ودعاة تحرر ، وشيوعيين . . والأرجح كثيرا أن الشعب الروسى سيرحب بأى مهيِّج يقدم له أكثر الوعود إسرافا » (٧٤) .

ذلك سيناريو مبالغ فيه ، ولكنه لا يخلو من بعض عناصر الحقيقة . فروسيا، على خلاف الصين ، تواجه مشكلة هوبزية (*) بشأن إقرار النظام . فالاتحاد الروسى كيان تبقى من إمبراطورية سابقة ، وليس دولة قومية حديثة . ولكن باستثناء محاولة الانفصال من جانب شيشنيا ، لاتوجد تحركات انفصالية ذات أهمية عسكريًا . ويتطلب الانهيار الواسع النطاق للاتحاد الروسى درجة من الروح النضالية التى لايبدو أنها متوافرة فى الوقت الحالى لدى أىٍّ من شعوبه . وليس فى السنوات القليلة الماضية مايوحى بوجود رغبة متفشية فى مغامرة عسكرية من هذا القبيل بين الروس وغالبية الشعوب غير الروسية فى الاتحاد الروسى .

وثمة تطور أكثر ترجيحا هو أن الخوف من حدوث « عصر اضطرابات » آخر ـ فترة الفوضى والحرب الأهلية التى مرت بها روسيا فى أواخر القرن السادس عشر، والتى مازلت ذكراها حيّة فى الأغانى والفولكلور الروسى ـ سيكون بمثابة عامل حفّاز على تعزيز أواصر الدولة الروسية . فالطابع الإجرامى للرأسمالية الروسية الحالية سيدفع إلى المطالبة بمزيد من التوسع فى نظام السلطة الرئاسية الذى دشنه بوريس يلتسن .

---

(٧٤) چيم روجرز ، " No new money for an old Empire " ، فى جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ٥ أكتوبر ١٩٩٠ ، الصفحة ٢ .

(*) نسبة إلى توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) ، وهو فيلسوف إنجليزى ، عرف فى الميدان السياسى بكتابه « التنين الجبار أو لوثايان » ، الذى دافع فيه عن الحكم الملكى المطلق ، وفضله عن النظامين الارستقراطى والشعبى . طالب بألا يكون سلطان الحاكم مقيدا بشىء . وفلسفة هوبز تجريبية ترد المعلومات إلى الخبرة الحسية ـ المترجم .

ومن الصعب المبالغة فى درجة الضعف التى تردّت فيها الدولة الروسية اليوم. ومع ذلك فإن مؤسسات الدولة فى روسيا ، لاسيما تلك المعنية بالقانون والنظام ، سوف يتم اصلاحها وتجديدها قبل فوات الأوان . فالأعراف الروسية التى عمادها وجود سلطة قوية تتطلب مؤسسات فعالة للحكم . ويُعَدّ برنامج يلتسن للإصلاح العسكرى ، الذى يرمى إلى الاستعاضة عن التجنيد الإجباري فى الاتحاد السوفييتى السابق بجيش حديث من الجنود المحترفين ، علامة على أن بناء المؤسسات قد بدأ .

وليس من الضرورى أن يكون تجديد الدولة الروسية تحركا فى اتجاه دكتاتورية تسلطية. فهناك دول ديمقراطية أخرى ، مثل فرنسا فى عهد ديجول ، كانت لديها مؤسسات تسمح بوجود سلطة تنفيذية قوية . بل إن نمو مؤسسات كهذه فى روسيا قد يكون خطوة نحو إقامة دولة عصرية تستطيع أن تمارس دورا إستراتيجيا فى تطور الرأسمالية شبيهاً بالدور الذى قامت به الدولة الروسية فى أواخر العهد القيصرى .

ومع ذلك فإن إعادة بناء الاتحاد الروسى كدولة ـ قومية عصرية تعدّ مهمة صعبة وجسيمة . فهى تتطلب تجريبا جسورا فى توزيع السلطة من المركز من خلال مؤسسات فيدرالية جنبا إلى جنب مع نمو شعور روسى بالانتماء إلى الأمة لايكون قائما على خصوصية عرقية . وهى لن تلبى الحاجة إلى الأمن الشخصى مالم تشتمل على نظام قضائى مستقل يُعوَّل عليه . ومؤسسات كهذه لن يكون تطورها سريعا فى بلد كانت أعرافه دائما إمبراطورية وتسلطية .

وإذا لم تقم دولة حديثة فعالة فى روسيا ، فلن يكون فى الوسع حماية بيئتها الطبيعية من استمرار الاستغلال والتدهور ـ هذه المرة ليس فى خدمة الخطط الاقتصادية الشديدة الاعتداد بالنفس التى عرفت فى الفترة السوفييتية ، بل فى خدمة الربح التجارى القصير الأجل الذى يذهب جانب كبير منه إلى خزائن المافيا. ومن غير دولة كهذه لايمكن إصلاح الخدمات العامة التى خربت ، ولن يكون لمؤسسات السوق شرعية فى نظر الجمهور .

وباستثناء البولشفية ، لم يسبق قط أن وجدت أيديولوچية سياسية بعيدة عن ملاءمة التحديث الروسى من الأيديولوچية التى تدعو إلى إقامة أسواق حرة من خلال حكومة الحد الأدنى . ذلك أن اقتصاد السوق الحديث سيولد فى روسيا الحالية كوليد لحكومة قوية.

وإذا اهتدينا بالاتجاه الحالى لسياسات يلتسن ، واعتبرناه مرشدا إلى السياسات التى

ستتبع بعد عهده ، فإنه يمكن القول إن الدولة الروسية قد استأنفت الاضطلاع بدور إستراتيچى فى تنمية الرأسمالية الروسية . ومن شأن تطور كهذا أن يعزز حقيقة أساسية ـ وهى أنه لا سير البلاشفة الحثيث نحو التصنيع ، ولا العلاج بالصدمة التى فرض على الاتحاد الروسى ، قد أمكنه إنجاز حداثة حقيقية .

وهناك مخاطر واضحة فى أية إستراتيچية روسية لبناء الدولة . فهى يمكن أن تعزز قوة المافيا بدلا من أن تضعفها . وإذا ما اقترنت بمشاعر عرقية ضيقة ، فإنها يمكن أن تحيى ذكريات تاريخية مؤلمة لدى الشعوب غير الروسية فى روسيا ، كما يمكن بسهولة أن تتحول إلى مشاعر معادية للأجانب . وإذا لم توجد سلطة قضائية مستقلة ، فإن الالتزام بإنفاذ القانون يمكن أن يصبح مجرد ممارسة أخرى فى القمع . فضلا عن أن قيام دولة روسية قوية يمكن أن يولد حكما غاشما تقليديا .

ومع ذلك فليس ثمة بديل حقيقى لبناء الدولة فى روسيا . والتواطؤ فى الانجراف نحو الفوضى إنما يُسلم تراث الحكم القوى لتحالف ارتدادى بين الشيوعيين السابقين والفاشيين الجدد . ولن يكون هذا التحالف بين القوى الرجعية أكثر قدرة على تحقيق تحديث قابل للاستمرار من دعاة التغريب الرومانسيين الذين حاولوا تطبيق العلاج بالصدمة . وتشير سياسات يلتسن إلى أنه يدرك حاجة روسيا إلى نهج أكثر انتقائية ومتعدد المصادر إذا أريد أن يكون التحديث ملائما لدولة يقع جزء منها فى أوروبا والجزء الآخر فى آسيا .

روسيا الأوروبية الآسيوية

أعقب انتهاء السلطة السوڤييتية فى بعض البلدان عودة سريعة إلى المؤسسات والأعراف الأوروبية . ففى جمهورية التشيك ، وفى المجر ، وفى دول البلطيق ، وفى سلوڤينيا ، كان الوجود ضمن الكتلة السوڤييتية يعنى الانفصال الإجبارى عن الأسلوب الأوروبى فى الحياة . وكانت فترة مابعد الشيوعية بالنسبة لهذه البلدان بمثابة إعادة اكتشاف « للأوضاع الطبيعية » . وكان تعريف تلك الأوضاع يختلف من بلد لآخر ـ فهو أحيانا الانتماء إلى الجمهوريات الديمقراطية فى فترة مابين الحربين ، وأحيانا الوجود فى ظل إمبراطورية هابسبرج ـ لكن أصولها الأوروبية ليست موضع شك .

وقد حدث هذا الانتقال إلى المؤسسات والقيم الغربية ، ليس لأن التغريب

والتحديث هما شيء واحد فى كل مكان ، ولكن لأن أعراف هذه البلدان بوجه خاص كانت دائما هى أعراف الشعوب الأوروبية . وبالنسبة لها فإن التاريخ لم ينته بسقوط الشيوعية ، وإنما استؤنف التاريخ بعد انقطاع دام نصف قرن .

ولكن المسألة فى بعض البلدان فى مرحلة ما بعد الشيوعية تعدّ أكثر تعقيدا . فبالنسبة لبولندا كانت « أوروبا » ـ التى تعنى فى الممارسة مؤسسات الاتحاد الأوربى ـ حلاّ لمصاعب قديمة العهد . كما أنها تَعد بحل معضلات تاريخية ناشئة عن موقع بولندا ـ الجغرافى والجيوستراتيجى ـ بين ألمانيا وروسيا . أما مسألة ما إذا كانت «أوروبا » ستكون فى مستوى تلك الآمال ، فتلك مسألة أخرى . والواضح أن الدور الذى يمكن أن تقوم به أوروبا فى الوقت الحالى هو أن تقدم إجابة على أسئلة ملحة تتعلق بالهوية القومية والأمن اللذين كانا فى تاريخ بولندا مصدرا للمآسى .(٧٥)

وفى بلدان أخرى أيضا تمر بفترة ما بعد الشيوعية ، فإن انتهاء العهد الشيوعى كان بمثابة فسحة أخرى فى عمر الأعراف الأوروبية التى لم تكن سائدة أبدا من قبل ، وإنما كانت قد سعت طويلا لأن تكون كذلك . ففى رومانيا كان سقوط النظام الشيوعى ، الذى لم يحدث بسقوط شاوشيسكو ، بل بعد ذلك بسنوات عديدة ، فى انتخابات عام ١٩٩٦ ، قد جدّد الصراع بين من يرونها بلدا أوروبيا متأخرا ، ومن يرون فى أعرافها المسيحية الأرثوذكسية سببا لكونها لايمكن أن تصبح فى أى وقت مجرد دولة أوروبية أخرى . غير أن هذه الاختلافات الثقافية والسياسية لم تؤثر على السياسة الوطنية الرومانية التى ظلت تسعى إلى إقامة علاقة أوثق مع الاتحاد الأوروبى ومع حلف الأطلسى . وفى الصرب وحدها كانت القوى السياسية « المناهضة للغرب » مسيطرة طوال فترة ما بعد الشيوعية .

وثمة فجوة عميقة فى روسيا ، بين الجيل الذى شكلته الخبرة السوفييتية والروس الجدد الذين بلغوا مرحلة النضج فى سنوات الانهيار السوفييتى ، وهى فجوة تضمن بأنه لن تكون هناك عودة إلى الوراء . ولم يعد باقيا غير الحلم القديم بماض أفضل ، كما لايوجد احتمال يذكر لحدوث تحول مناهض للغرب من النوع الذى يدعو له فى

---

(٧٥) من أجل الاضطلاع على مناقشة ممتازة للدور السياسى للفكرة الأوروبية فى بلدان مابعد الشيوعية ، انظر ، تونى جودت ، A Grand Illusion ? An Essay on Europe ، لندن ونيويورك : پنجوين بوكس . ، ١٩٩٧ .

حماسة بعض أنصار **السلافية** (*) المعاصرين (الذين يمكن اعتبار **سولجينتسن** (**) واحداً منهم) . وإذا كفّت روسيا ، كما هو مرجح ، عن محاكاة البلدان الغربية ، فلن يتطلب منها ذلك أن تنهج سياسات مناهضة للغرب .

ومع ذلك فإن التخلّي عن العلاج بالصدمة كان تعبيرا عن تراجع حاسم لدعاة التغريب الروس . وقد بيّنت الانتخابات البرلمانية والرئاسية فيما بين عامى ١٩٩٣ و١٩٩٣ ، أنه بينما تفضل نسبة من الروس الإصلاح الاقتصادى وفقا لنموذج غربى ، فإن هذه النسبة لاتعدو أن تكون أقلية .

وكانت الهزيمة الفاجعة التى منى بها جورباتشوف فى الانتخابات الرئاسية ، بحصوله على أقل من واحد فى المائة من أصوات الناخبين ، راجعة إلى أسباب عدة كان من أهمها رفض الناخبين للتصور الذى جسده لمستقبل روسيا ، وهو تصور غربى لا إبهام

(*) **Slavophilism** : اتجاه سياسى محافظ فى الفكر الاجتماعى الروسى كان يسعى إلى تسويغ ضرورة اتباع روسيا لمسار خاص للتنمية يختلف عن مسار التنمية فى أوروبا الغربية . وكان من حيث مرماه الموضوعى برنامجا يوتوبيا رجعيا للانتقال من النبالة الروسية إلى المسار البورچوازى للتنمية مع الحفاظ على أكبر قدر من مزاياها . وكان هذا البرنامج يتطور عندما يصبح واضحا ضرورة التخلى عن أشكال الاستغلال القديمة ، وتكيّف الطبقات الحاكمة مع الظروف الجديدة . ومايعنيه الوارد فى المتن بأنصار السلافية هو مجموعة من المثقفين الروس فى القرن التاسع عشر الذين كانوا يعتقدون بتفوق الثقافة الروسية على غيرها من الثقافات ـ المترجم .

(**) ألكسندر ايزاييفيتش سولجيتسن : (١٩١٨ ـ ؟) حكم عليه بالسجن ثمانى سنوات بسبب نقده لستالين . بدأحياته الأدبية داخل السجن بكتابة الشعر . صدرت أول رواية له « **يوم فى حياة إيفان دينسوفيتش** » فى عام ١٩٦٢ ، حكى فيها قصة يوم فى حياة أحد المودعين فى معسكرات العمل . وكانت هذه الرواية بداية شهرته . وقد تلتها روايتان : « **الحلقة الأولى** » و « **عنبر السرطان** » ، ونشرت كلتاهماخارج الاتحاد السوفييتى عام ١٩٦٨ . فبسبب نقده المستمر للسلطة السوفييتية كانت أعماله محظورة فى الاتحاد السوفييتى منذ منتصف الستينيات ، وإن كانت تجد طريقها سرا إلى بعض القراء . حصل على جائزة نوبل فى عام ١٩٧٠ ، مما يؤكد الطابع السياسى لهذه الجائزة ، ولكنه لم يسافر لاستلامها خشية عدم السماح له بالعودة . وفى عام ١٩٧٤ نشرت فى باريس الأجزاء الأولى من روايته « **أرخبيل الجولاج** » ، فقبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة وتم نفيه من الاتحاد السوفييتى ، فاستقر أولا فى سويسرا ، ثم بعد ذلك فى الولايات المتحدة ، وبعد تطور الأوضاع فى الاتحاد السوفييتى أصبحت أعماله متاحة للقراء السوفييت فى عام ١٩٨٩ . وفى عام ١٩٩١ أسقطت عنه تهمة الخيانة ، وعاد إلى بلاده . ، ومما لاشك فيه أن خيبة أمله لما رآه فى بلاده بعد عودته إليها لم تكن أقل إيلاما له من الأوضاع التى كانت سائدة فى الاتحاد السوفييتى ، والتى كرس أعماله لنقدها والتهجم عليها ـ المترجم .

فيه . فالأغلبية الروسية لن تؤيد فى أى مستقبل منظور التحديث الاقتصادى وفق أسس غربية متزمتة . ولذلك فإن مشروع تحديث روسيا وفقا لنموذج غربى قد أزيح عن الطريق .

وقد أشار يلتسن فى برنامجه للانتخابات الرئاسية إلى « روسيا ـ دولة أوروبية آسيوية ستصبح بفضل مواردها وموقعها الجيوسياسى الفريد أحد أكبر مراكز التنمية الاقتصادية والتأثير السياسى »(٧٦) . وهذا البيان الرئيسى يكشف عما للنظريات الأوروبية الآسيوية من دور محورى فى التفكير الروسى فى فترة مابعد الشيوعية .

وبالنسبة لدعاة روسيا أوروبية آسيوية فان تاريخ روسيا وظروفها الفريدة ـ أوضاعها الجغرافية ، وتنوع شعوبها ، وتاريخها بحسبانها مركزا للمسيحية الأرثوذكسية ، وسجلها فى محاولات التغريب الفاشلة ـ تجعل من المستحيل التوصل إلى اختيار نهائى قاطع بين آسيا وأوروبا ، بين « شرق » المسيحية الأرثوذكسية « وغرب » حركة الإصلاح الدينى ، أى النهضة والتنوير .

إن الحركة الأوروبية الآسيوية ترجع إلى العشرينيات . ففى ذلك الوقت أصدر المفكرون المهاجرون الروس بيانا بعنوان : **« الرحيل إلى الشرق : توجسات وإنجازات : إعلان للإيمان من جانب الأوروبيين الآسيويين »** (٧٧) .

وقد أوجز لايارد وپاركر وجهة نظر الأوروبيين الآسيويين بقولهما إن روسيا «حضارة چيو سياسية » قائمة بذاتها (٧٨) . كما يقول نيكرتش وهيلر عن الأوروبيين الآسيويين إن روسيا بالنسبة لهم « لم تكن الغرب فقط وإنما الشرق أيضا ، لم تكن أوروبا فقط ، بل آسيا كذلك . والحقيقة أنها لم تكن أوروبا على الإطلاق ، بل يورو آسيا»(٧٩) . وكما كانت الحال فى سنوات العشرينات فإن الأوروبيين الآسيويين اليوم مازالوا متأثرين بالمفكرين الروس فى القرن التاسع عشر ، من أمثال كونستانتين ليونتييف . (٨٠)

---

(٧٦) بوريس يلتسن ، **Programme of Action for 1996 - 2000** ، ٢٧من مايو عام ١٩٩٦ ، الصفحة ١٠٩ ، اقتسبت فى تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحة ٨ ، الحاشية ٩ .

(٧٧) برنس نيكولاى تروبستسكوى ، چورج فلوروفسكى وپيوتر ساڤيستكى ، **Iskhad Kvostoku (Exodus to the East)** ، صوفيا ، ١٩٢١ .

(٧٨) لايارد وپاركر ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٤ .

(٧٩) نيكرتش وهيلر ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٨ . وقد ناقشت الحركة اليور وآسيوية بايجاز فى فصل عنوانه " **Totalitarianism Reform , and civil society** " ، فى كتابى **Post - Liberalism** ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٧٧ و ١٧٨ .

(٨٠) من أجل الاطلاع على عرض مفيد لفكر ليونتييف ، انظر ، ن بيرديايف ، **Leontiev** ، لندن : چوفريى بلس ، ذى سنتنارى پرس ، ١٩٤٠

وقد استشهد تروسكوت بعبارة لرسلان حسب اللاتوف رئيس البرلمان الروسى عندما قال فى عام ١٩٩٢ إنه « بينما فرض بطرس الأكبر عناصر من الثقافة الغربية فى روسيا . . . . . فإن النسيج الروحى والثقافى للشعب الروسى ظل على حاله لم يمس . ونتيجة لهذا فإن لدينا روسيا ، وهى ليست أوروبا وليست آسيا ، وإنما هى جزء خالص ومتميز تماما من العالم » . وفى تقييمه لدور التفكير اليورو آسيوى فى تشكيل السياسة الروسية يخلص تروسكوت إلى أن :

الغرب قد افترض أن روسيا عند خروجها من الفترة السوفييتية سوف تطوّر نظاما سياسيا واقتصاديا يقوم على الأساس الأوروبى والأمريكى. وبينما كان يمكن محاولة ذلك عند بداية عصر يلتسن ، فإن الأمر لم يعد كذلك اليوم . فانتخابات الدوما فى عامى ١٩٩٣ و ١٩٩٥ ، والانتخابات الرئاسية فى عام ١٩٩٦ ، تبين بصورة قاطعة أن ذلك لن يحدث . فالنموذج الغربى للديمقراطية واقتصاد السوق رُفض رفضا حاسما من جانب الشعب الروسى . . . . . وكانت النتيجة . . . . . نهجا جديدا فى العلاقات مع الغرب . وسوف تتبع روسيا نهجا أكثر انتقائية ، يستوعب بعض الأفكار والقيم الغربية (ومن بينها المهارات التكنولوجية والتجارية) مع تطوير نموذج روسى خاص للديمقراطية والاقتصاد الموجه نمو السوق (٨١) .

وتتفق السياسة اليورو آسيوية مع كثير من أوضاع روسيا فى فترة مابعد الشيوعية - من حيث تنوعها الجغرافى والعرقى ، وبيئتها الإستراتيجية ، وأصولها الطبيعية . ويوجز لايارد وباركر التفكير الإستراتيجى الذى يملى على روسيا اتباع سياسة يورو آسيوية :

على امتداد العقود الأربعة التى استغرقتها الحرب الباردة، كان دعاة النهج اليوروآسيوى يقولون إن العالم كان منقسما بين غرب رأسمالى وشرق شيوعى . وعندما يختفى هذا الانقسام سيحل محله انقسام آخر بين شمال غنى وجنوب فقير . وتقف روسيا وسطا بين الجانبين . وقال هؤلاء الدعاة إن روسيا وإن تكن منتمية إلى الشمال جغرافيا ، إلا أنها أشبه بجزء من الجنوب اقتصاديّا . وحتى إذا مضى الإصلاح قدما ، فان الأمر - فى زعمهم سيتطلب ثلاثين سنة، قبل أن يكون باستطاعة روسيا الانضمام إلى نادى البلدان الغنية . وحتى عندئذ ستكون مصالح روسيا مع ذلك مختلفة عن مصالح الدول الشمالية الأخرى . وروسيا تقف فى

---

(٨١) تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحات ٢ و ٥ إلى ٦ .

مواجهة الجنوب الفقير بطريقة لايشاطرها فيها أى بلد شمالى آخر . وهى لها بوجه خاص حدود طويلة مع الجنوب الفقير ـ منطقة القوقاز ، ودول آسيا الوسطى ، والصين . وعليها أن تولى انتباها خاصا لعلاقاتها مع الدول الإسلامية ، لأن سبع دول من جيرانها دول إسلامية ، كما أن روسيا نفسها تضم ١٨ مليون مسلم . ومن واقع الحال فى عام ١٩٩٥ فإن روسيا كانت متورطة فى ثلاثة حروب تشمل ثلاث أمم غير روسية ـ فى طاچيكستان ، وشيشنيا ، والبوسنة . . . . . ولذا فان روسيا ليس بوسعها ، من أجل أمنها الخاص ، أن تتجاهل جيرانها فى الجنوب والجنوب الشرقى»[٨٢] .

ومن الزاوية الإستراتيچية يصعب الرد بالحجة والبينة على اتباع روسيا لسياسة يوروآسيوية . فروسيا ، على خلاف كل الدول الأوروپية ، دولة من دول المحيط الهادى ؛ وعلاقاتها الدفاعية والتجارية مع الصين هى من منظور طويل الأمد أكثر أهمية من علاقاتها مع أية دولة غربية .

ومع ذلك فان قوة التفكير اليورو آسيوى فى روسيا ما بعد الشيوعية لايعكس فقط هذه الحقائق الاستراتيچية ، وإنما هو يعبر عن واقع أعمق ، وهو أن روسيا لم توفق فى أى وقت فى التوحد بشكل قاطع سواء مع أوروپا أو آسيا . والإستراتيچية اليورو آسيوية هى أبلغ تجسيد لهذا الازدواج الروسى المستمر .

موارد الرأسمالية الروسية

إن الرأسمالية النابعة من الداخل ، والتى يبدو أنها آخذة فى الظهور فى روسيا ، تواجه عقبات هائلة ، ولكنها تملك أيضا بعض ميزات قوية تعوضها عن ذلك . فالاتحاد الروسى ينتج أكثر من ١٠ فى المائة من الناتج العالمى من النفط ، و٣٠ فى المائة من ناتج الغاز فى العالم ، ومابين ١٠ و١٥ فى المائة من ناتج العالم من خامات المعادن غير الحديدية . إن الموارد الطبيعية لروسيا ضخمة للغاية .[٨٣]

كما أن موارد روسيا البشرية هى من بعض النواحى موارد غير عادية . فما زال

---

(٨٢) لايارد وپاركر ، المرجع السابق ، الصفحتان ٢٨١ و ٢٨٢ .

(٨٣) (EIU) وحدة المخابرات الاقتصادية ، EIU Country Profile 1995 - 6 : The Russian Federation ، ١٩٩٧ ، الصفحة ١٢ .

الروس من أرقى شعوب العالم تعليما ، مع مستويات لمعرفة القراءة والكتابة والحساب تفوق كثيرا مثيلاتها فى الولايات المتحدة وفى كثير من البلدان الأوروبية . وثمة تقرير أعد فى عام ١٩٩٦ يتضمن مقارنة بين الأطفال فى مدينة سان بطرسبرج ومدينة **ساندرلندر**(*) ، يتبين منها ارتفاع مستويات الحافز التعليمى فى بطرسبرج ، كما يظهر أن الأطفال الروس « كانوا يتجهون إلى تصور التعليم على أنه غاية فى ذاته . . . . . ثم أن الإلمام بالقراءة والكتابة واكتساب الثقافة كانا تقليديا موضع احترام وتقدير من جانب المجتمع . . . وكانت لدى الجميع رغبة فى أن يكونوا متعلمين » . وعلى الرغم من الهوية التى كانت آخذة فى الظهور فى روسيا باعتبارها دولة يوروآسيوية ، فإن مالدى الروس من إدراك وفهم لتاريخ أوروبا وقواعدها الثقافية أفضل مما لدى غالبية الشعوب التى هى «أوروبية » بصورة لاشك فيها .

وعلى نقيض الروس ، فإن الأطفال البريطانيين ينظرون إلى التعليم أساسا باعتباره وسيلة للحصول على مؤهلات وظيفية . وعلى الرغم من هذا النهج البراجماتى ، فإن اختيار هؤلاء الأطفال لمواضيع الدراسة يبدو أنه يهتدى بتجنب الصعوبة الفكرية أكثر مما يهتدى بجدواها المتصورة .(٨٤)

وكما هى الحال فى اليابان وسنغافورة ، فان التعليم المدرسى فى روسيا إنما هو انعكاس لأعراف وقيم أوروبا البورچوازية فى القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن مستويات التعليم فى الريف تكون فى بعض الأحيان شديدة الانخفاض ، فإن روسيا مازالت بوجه عام بلدا يتم فيه تقدير التعليم كقيمة فى ذاته . وذلك يعطيها ميزة على البلدان الغربية التى تنحنى احتراماً « لاقتصاد المعرفة » ، ولكن مداراسها ينبغى عليها أن تعمل فى إطار ثقافة أخضعت لأوضاع پروليتارية يكون للتعليم فيها قيمة نفعية فى المقام الأول .

وإذا قارنا روسيا بغالبية المجتمعات الغربية يتبين أنها بلد لم تستنفد حيويته الثقافية . ولما كانت تجمع فى الوقت الحالى بين تفاهات مابين الحداثة والأعراف التى تنتعش من جديد ، بين الرأسمالية الجامحة والاشمئزاز الشعبى من التجارة ، فانها يمكن أن تبدو للعيون الغربية مفتقرة إلى الاستقرار . ولكن بالرغم من أن هذه التناقضات ربما تكون

(*) مدينة إنجليزية بمقاطعة درهام بشمال شرق انجلترا ـ المترجم .

(٨٤) " **Attitude is what gives Russians the edge** " ، فى ملحق جريدة تيمس التعليمى ، عدد أول يناير ١٩٩٢ .

مصدرا لنزاعات سياسية فى المستقبل ، فإنها ليست مدمرة بصورة حتمية . وكما كانت الحال فى عصور ما قبل الثورة ، فإنها يمكن أن تكون مصدراً للإبداع الثقافى - والاقتصادى .

وقد تمكنت الأنسجة الضامة فى الحياة الاجتماعية فى روسيا من تجديد نفسها بدرجة تدعو إلى الدهشة . فالأسرة الممتدة التى لم يعد لها وجود فى العالم الرأسمالى الأنجلو سكسونى ظلت على قيد الحياة خلال فترة الشيوعية السوفييتية فى روسيا . [٨٥] كما أن بقاءها يفسر جزئيا مقدرة الروس على تحمل مشاق إصلاح السوق . وكما يقول لايارد وباركر : « كانت هناك مؤسستان لاغنى عنهما للبقاء : الأسرة الممتدة وقطعة الأرض الخاصة . فالأسرة الممتدة . . . . عنصر قوى فى نظام الأمن الاجتماعى . ذلك أن الأبناء البالغين يقدمون العون دائما تقريبا إلى آبائهم عند تقدمهم فى السن . كما أن الناس يقدمون العون لأبنائهم وأحفادهم عندما يواجهون متاعب » [٨٦] . وهذا الضعف النسبى « للنزعة الفردية» فى روسيا هو الذى سمح للمعونة المتبادلة فى الأسرة الممتدة أن تستمر بدرجة لاتعرفها مجتمعات غربية كثيرة ، وبخاصة المجتمعات الأنجلوسكسونية .

إن الطبقات الوسطى الروسية ، التى كانت تنمو ببطء خلال الفترة السوفييتية ، قد أصابها الضعف نتيجة للفوضى والحرمان اللذين أعقبا العلاج بالصدمة . ومع ذلك فمن المفارقات أن من بين ماخلفته الفترة السوفييتية تراث بورچوازى قوامه سعة الحيلة والقدرة على اكتساب المهارات . وبفضل هذا التراث كان فى استطاعة شباب الطبقة الوسطى التلاؤم مع الأوضاع الجديدة ، كما كان فى استطاعته فى حالات كثيرة تحقيق كسب أكبر كثيرا مما كان يحققه آباؤهم . فهؤلاء الروس احتفظوا بالقدرة على العمل ، بل فى بعض الأحيان بالقدرة على النجاح ، فى ظل ظروف تدعو إلى اليأس . وهم فى ذلك مهيأون جيدا لمواجهة الأسواق العالمية .

ومن ثم فإنه من زاوية الموارد الطبيعية والبشرية ، مازالت روسيا من أوفر البلدان حظّا فى العالم ، ولكنها تعانى أيضا واحدة من أسوأ الحكومات . ويعتبر تجديد مؤسسات الدولة الروسية شرطا مسبقا جوهريا لتطور الرأسمالية الفوضوية الحالية فى فترة مابعد

---

(٨٥) من أجل الاطلاع على دراسة لقوة الأسرة الروسية فى الفترة السوفييتية ، انظر ، كلاوس مينيرت، **Soviet Man and His World** ، نيويورك ، ١٩٦١ ، الفصل الذى عنوانه **" Family and Home "** .

(٨٦) لايارد وباركر ، المرجع السابق ، الصفحة ١٠٦ .

الشيوعية إلى رأسمالية روسية نابعة من ظروفها المحلية ، شبيهة بتلك التى ازدهرت فى ظل المرحلة الأخيرة من القيصرية . فمن غير مؤسسات دولة عصرية ، لايمكن فصل الحبل السرى الذى يربط الرأسمالية الروسية بالاتحاد السوفييتى السابق وعصابات المافيا . وإلى أن تتوفر لروسيا دولة قوية فعالة ، لن يكون لديها اقتصاد سوق حقيقى ، بل بالأحرى سيكون لديها نوع من النقابية الإجرامية . وإلى أن تحل روسيا مشكلتها الهوبزية فإنها لن تكون دولة عصرية .

والفلسفة الغربية التى تم استيرادها خلال الفترة القصيرة التى استغرقها العلاج بالصدمة لم تكن ترمى إلى التصدى للظروف المميزة لروسيا الحالية ولاحتياجاتها الخاصة . فالاختلاف بين العقيدة الليبرالية الجديدة وبين اللينينية لم يكن حول الغايات التى وضعت السياسات من أجلها ، بل كان حول الوسائل ـ وحتى ذلك لم يكن بصفة دائمة . ففيما بين عامى ١٩٨٩ و ١٩٩٣ بلغت إستراتيچيتا التحديث هاتان ، ذواتا التوجه الغربى ، نهاية الطريق ، وتجدد البحث عن سبيل للتحديث نابع من ظروف روسيا المحلية .

إن روسيا ما بعد الشيوعية ، عندما تعود إلى طريق التنمية الذى قطعته الحرب العالمية الأولى ومرحلة الشيوعية ، وقطعه العلاج بالصدمة لفترة قصيرة ، لاتضع نفسها فى مواجهة « الغرب » . فهى تدرك حقيقة أن تحديث روسيا عن طريق مواجهة الغرب قد أخفق . وفى الوقت نفسه ليس من الضرورى أن تكون روسيا اليورو آسيوية غير الغربية ، روسيا مناهضة للغرب .

والطريقة التى تتفاعل بها روسيا مع أوروبا الغربية والولايات المتحدة تعتمد أساسا على حكومات تلك البلدان التى تمسك فى الأوضاع الحالية بزمام المبادرة فى غالبية القضايا الاقتصادية والأمنية . ولن تؤدى سياسات الانبهار بالانتصار التى تنتهجها الدول الغربية إلا إلى زيادة المصاعب التى تعترض ظهور دولة روسية عصرية . وإذا كان هناك خطر أن تتحول روسيا إلى دولة من طراز **ڤيمار** (*) ، فان هذا الخطر يزداد إذا اتبع الغرب سياسات تدفعها فى هذا الاتجاه .

(*) الاسم الذى أطلق على الجمهورية التى أنشئت فى ألمانيا فى عام ١٩١٩ بعد تنازل الإمبراطور ولهلم الثانى ، وكان دستورها مركزيا ديمقراطيا . تولى رئاستها فردريك إيبرت (١٩ ـ ١٩٢٥) ، ثم المارشال پول هندنبرج (٢٥ ـ ١٩٣٤) . انتهى وجودها عمليا فى عام ١٩٣٣ ، عندما عيّن أدولف هتلر مستشارا وقام بتأسيس الرايخ الثالث ـ المترجم .

والواقع أنه ليس هناك شيء فى ظهور روسيا يورو آسيوية يهدد بالضرورة المصالح الحيوية لأية دولة غربية . وإذا حدث أن ظهرت نزاعات فى الوقت الذى تقوم فيه روسيا ببناء اقتصاد سوق يكون انعكاسا لتاريخها واحتياجاتها الراهنة ، فسيكون مرجع ظهورها أن الرأسمالية الروسية ليس باستطاعتها التكيف مع الإطار « **البروكروستيزى** »(*) للسوق الحرة العالمية .

(*) نسبة إلى بروكروستيزى ، وهو لص إغريقى خرافى يمد أرجل ضحاياه أو يقطعها لكى يجعل طولهم منسجما مع فراشه ، والمعنى المقصود هنا هو الميل إلى إحداث التناسب أو التجانس بوسائل عنيفة أو اعتباطية ـ المترجم .